الجمهورية الجزائرية الدّيمقراطية الشّعبية

وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد

{ الملحقة الجامعية-مغنية-}

كلية الآداب واللّغات

قسم اللّغة والأدب العربي

مذكّرة تخرّج لنيل شهادة الماستر

تخصص دراسات أدبية

دلالات المكان في الشعر الأندلسي

العصر الغرناطي أنموذجاً

إعداد الطّالبة:

خلجاوي نعيمة

إشراف الأستاذ الفاضل:

د. عزوزي عبد الصمد

أعضاء اللجنة المناقشة

د. بن مالك سيدي محمد	أستاذ محاضر	رئيساً
د. عزوزي عبد الصمد	أستاذ محاضر	مشرفاً ومقرّراً
د. عبد الرحيم خديجة	أستاذ محاضر	مناقشاً

السنة الجامعية: 2015-2016

بسم الله الرحمان الرحيم

الإهداء

أهدي عصارة جهدي إلى:

♥ روح أبي الغالية.

♥ أمي الحنونة زهرة حياتي ونورها.

♥ رفيق دربي وبسمة عمري زوجي الحبيب.

♥ فلذة كبدي وزهرة حياتي ابني عبد الصّمد.

♥ كل من وقف خلف هذا العمل بالتشجيع وإسداء النّصح من إخوانٍ وأخوات.

♠ إليهم جميعاً أهدي هذا الجهد المتواضع.

شكر و امتنان

شكر وعرفان:

أتقدم بعظيم الشّكر والعرفان إلى مدير جامعة أبي بكر بلقايد بمغنية

الذي منحني فرصة البحث والدّراسة من جديد .

كما لا يسعني إلا أن أتقدّم بوافر التّقدير وجزيل الشّكر إلى الأستاذ الدكتور

"**عزوزي عبد الصمد**" الذي تكرّم بالإشراف على هذا البحث،

ومتابعته منذ أن كان فكرة إلى أن تجسّد نسخة مطبوعة

والذي لولاه لما خرج هذا البحث على صورته هذه فجزاه الله تعالى كلّ

خير.

وإلى الأساتذة المناقشين، وكلّ من ساعدني سواء من قريب

أو من بعيد في إنجاز هذه المذكرة.

المقدمة

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن بلغة العرب، والصّلاة والسّلام على سيدنا محمد أفصح من خطب، وعلى آله وصحبه على مرّ السّنين والحقب.

أما بعد:

اقترن المكان بكيان الإنسان ووجوده، وقام بدور أساسي في حياته تجلّى أثره في تشكيل وجدانه ووسم حياته بسمات خاصّة تركت آثارها في تحرّكاته وسكناته، تجلّى هذا التّأثير في الأدباء على مرّ السّنين حتى أصبح المكان محطّ أنظار الدّارسين للأدب، تعمّقت أهميته أكثر عندما أصبح ينظر إليه على أنّه عنصر شكلي وتشكيلي من عناصر العمل الفنّي له دلالاته الخاصّة، والتي كانت بارزة في الشّعر الأندلسي لذلك جاءت مذكرتي موسومة بعنوان: **دلالات المكان في الشعر الأندلسي –العصر الغرناطي أنموذجا–**

من أهمّ البواعث التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع: خصوبة المادّة الشّعرية مما يجعلها جديرة بالبحث والدّراسة، محاولة معرفة سرّ ارتباط الشّاعر الأندلسي بالمكان ولاسيما أنّني كنت قد درست إشكالية المكان في الشّعر الفلسطيني المعاصر، هذا ما دفعني وحمّسني أكثر لأستشفّ دلالته في العصر الغرناطي.

لقد اكتسب المكان في الشّعر الأندلسي قيمة تاريخيّة، حيث كان شاهداً على قيام حضارة عظيمة، كما كان شاهداً أيضاً على زوال مدنها ونهاية حكمها وهجرة أهلها، فبكى المكان واستنجد لحمايته ورثاءه، هذا ما أكسبه دلالات ميّزته عن سائر العصور الأخرى: فما المقصود إذن بالمكان؟ وكيف يتحوّل المكان من مكان طبيعي إلى مكان شعري؟ وما هي دلالته وكيف تجسّدت في الشّعر الغرناطي؟

ومن أجل الإجابة عن هذه التساؤلات اعتمدت على الخطّة الآتية: مقدمة، فمدخل تطرّقت فيه إلى مفهوم المكان لغوياً وفلسفياً واصطلاحياً ثم أردفته بالفصل الأول الذي جاء معنونا بـــ: دلالات المكان وبلاغته الذي بدوره قسّمته إلى مبحثين، المبحث الأول تضمّن الدلالات النّفسية والاجتماعية للمكان في الشّعر الأندلسي عامّة، والمبحث الثاني تناولت فيه بلاغة المكان، ألحقته بفصل ثان موسوم بـــ: دلالات المكان في الشّعر الغرناطي الذي قسمته بدوره إلى مبحثين: المبحث الأول: درست فيه دلالة المدن والمبحث الثاني تناولت دلالة الطبيعة الغرناطية.

أنهيت البحث بخاتمة رصدت فيها أهمّ النّتائج التي توصّلت إليها من خلال البحث متّبعة في ذلك المقاربة التّاريخية السميائية من خلال تصويري للأحداث الماضية وبعث الحياة فيها من جديد من أجل تحديد الظّروف التي أحاطت بالشّعراء حتى أكسبوا للمكان تلك الدلالات.

من أهم الصّعوبات التي واجهتني صعوبة استخراج النّصوص الشّعرية من المصادر والمراجع، والبحث عنها في مظانّها، لكنّها والحمد لله لم تعرقل البحث أو تحُول دون إتمامه.

اعتمدت في إنجاز هذه المذكرة على مجموعة من المصادر والمراجع من أهمّها: نفح الطيب للمقري، الإحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب، بلاغة المكان لفتيحة كحلوش، الأدب الأندلسي لسامي يوسف أبو زيد.

ولا يسعني في الأخير إلا أن أحمد الله وأشكره على كريم نعمته وجزيل منّته، على ما يسّر لي من إتمام هذا البحث.

{عونك اللهم وتيسيرك}

مدخل

القراءات القرآنيّة وصلتها بعلم الأصوات

يمثّل المكان محوراً أساسياً من المحاور البارزة التي تدور حولها نظريّة النقد، ومحطّ أنظار كثير من الدارسين، خاصّة أنّه في الآونة الأخيرة لم يعد يعتبر مجرّد خلفيّة تقع فيها الأحداث، بل أصبح ينظر إليه على أنّه عنصر شكلي وتشكيلي من عناصر العمل الفني، فتفاعل العناصر المكانية وتضادّها يشكّلان بعداً جمالياً من أبعاد النّص الأدبي، هذا ما دفع بـــ **'غالب هلسا'** للقول: **"إِنَّ العَمَل الأَدَبي حِينَ يَفْتَقِد المكانية، فهو يفتقِد خُصوصيته وبالتالي أصالتَه"**.[1]

فحين يُفْتَقَدُ المكان من الإنتاج الأدبي يُفْقِدُهُ ذلك الخصوصيّة والأصالة، أمّا إذا بحثنا عن المكان في أغوار نفسيّة الشّاعر ومخيّلته فلا نجد مجرّد حيّز متروي في أطراف ذاكرته في خِضَمّ عددٍ لا مُتناهٍ من التَرسُّبات والتراكُمات، ولكنّه يَحتَل –المكان– مركزها، ليتحدَّث بصوتٍ واضحٍ وليشكّل ذلك الحديثُ بين الذّات المبدِعة والمكان الخارجي لغة أخرى، لغة جديدة تختزل في طيّاتها ملامح شعرية المكان.[2]

وقد تمظهرت ملامح المكان ومدلولاته منذ القديم، وذلك بوقوف الشّعراء الجاهليين على الأطلال، حيث وقف الشّاعر واستوقف وبكى واستبكى، وقال في قصّة تلك الأمكنة شِعراً من الدُّرَرِ، وتواصل الاهتمام بالمكان مع الشّعراء العبّاسيين، ليتجسّد أكثر في شعر الأندلسيين، حيث كان المكان شاهداً على قيام حضارةٍ عظيمةٍ وعلى زوالها ونهاية حكمها، وهجرة أهلها أو على قتلهم.

وقبل التطرّق إلى دراسة المكان وتجلّيات دلالاته في الشعر الأندلسي، لا بدّ أن نتطرّق إلى التّعريف بالمكان أوّلا، وإلى أهمّ المصطلحات المقاربة له، ولنقف على مفهوم لفظة "المكان" لغويًّا ننطلق أوّلاً من القرآن الكريم، إذْ وردت في ثمانية وعشرين موضعاً تحمل دلالات ومعاني متعدّدة ومتنوّعة:

1. منها ما يدور حول معنى (**الموضع**) أو (**المحل**)، كقوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِن أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا**﴾[3]، أي موضعاً أو محلاً شرقيًّا عن أهلها.

---

[1] جماليات المكان: غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1984، ص06.

[2] ينظر بلاغة المكان، فتيحة كحلوش، دار الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2008، ص08.

[3] سورة مريم، {الآية 16}.

2. منها ما جاء بمعنى (**بدل**)، في قوله تعالى: ﴿**قَالُوا يَا أَيُّهَا العَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيراً فَخُذ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المُحْسِنِينَ**﴾[1] و(مكانه) هنا تعني بدلاً منه.

3. بينما وردت في مواضع أخرى بمعنى (**المنزلة**)، وهي على الأرجح من أبرز المعاني المذكورة للمكان في القرآن الكريم.

أمّا في المعاجم اللّغوية العربية، فقد ذكر '**ابن منظور**' لفظ المكان في معجمه "**لسان العرب**" تحت الجذر (كَوَنَ)، لكنّه ما لَبِثَ أن أعاد الحديث عنه تحت الجذر (مَكَنَ)، فقال: "**المكان الموضع، والجمع أمكنة، كقُذَالْ، وأَقْذِلَة، وأماكن جمع الجمع**، فقال **ثعلب: بَطُل أن يكون فِعالاً لأنّ العرب تقول: كُن مَكانَك واقْعُد مَقْعَدَكَ، فقد دلّ هذا على أنّه مصدر من مكان أو موضع منه**"[2]

ويؤكّد صاحب اللّسان –على الرّغم من ذكره المكان ضمن الجذرين (كون، مكن)– أنّ المكان مشتق من (كَوَنَ) لا من (مَكَنَ)، وكذلك كان مذهب '**الزبيدي**' في معجمه "**تاج العروس**"، إذ استشهد بقول **الليث**: "**المكان اشتقاقه من كَانَ يَكُونُ، ولكنه لما كثُر في الكلام صارت الميم كأنها أصلية**"[3]، ووافقهما **الأزهري**، ودلّل على صحّة هذا الأصل بأنّ العرب لا تقول: "**هو ميني مكان كذا وكذا بالنّصب**".[4]

غير أنّ هذا الدّليل الذي أورده **الأزهري** فيه نظر، لقول **سيبويه**: "**وذلك قول العرب سمِعناه منهم: هو منّي مترلة الشفاف، وهو مني مترلة الولد، ويذلل على أنّه ظرف قولك هو مني بمترلة الولد، فإنما أردت أن تجعله في ذلك الموضع، فصار كقولك: مترلي مكان كذا وكذا، وهو منّي مزجر الكلب**".[5]

---

[1] سورة يوسف، {الآية 78}.

[2] لسان العرب، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، دار المعارف، مصر، 2003، ج6، ص4250.

[3] تاج العروس، الزبيدي، ت: علي عشري، دار الفكر للطباعة والنشر، 1994، ج 18، ص 448.

[4] تهذيب اللغة، الأزهري، تحقيق علي حسن هلالي، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة، ج10، د.ط، د.ت، ص294.

[5] الزمكانية وبنية الشعر المعاصر (أحمد عبد المعطي نموذجا)، موسى حمودة، جدار الكتاب العالمي، عمان، الأردن، د.ط، 2006، ص 16.

أمّا رأي **'الفراهيدي'** في **"معجم العين"** فالمكان من جذر (مَكَنَ) فقال: "مَكَنَ: المَكْنُ والمَكِنُ: بيض الضَبِ ونحوه ضبّة مَكُونْ، والواحدة: مَكِنَة: والمكان في أصل تقدير الفعل، مَفْعَل، لأنّه موضع للكينونة غير أنّه لما كثر أجرَوْه في التّصريف مجر الفِعَال، فقالوا مكّنًا له، وقد تَمَكَّنَ، وليس بأعجب من تَمَسْكَنَ من المِسْكِين، والدّليل على أنّ المكان مَفْعَل: "أنّ العرب لا تقول مني في مكان كذا وكذا إلا بالنّصب".[1]

وكذا نجد **'إسماعيل ابن حماد الجوهري'** يذهب مذهب صاحب العين نفسه في معجمه **"الصحاح"** فقال: "المكان من (مَكَنَ): مَكَّنَهُ الله من الشّيء وأمْكَنَه مِنْه بمعنى، واسْتَمْكَن الرّجل من الشّيء وتمكّن منه بمعنى، فلان لا يمكنه النّهوض أي لا يقدر عليه، وقولهم: ما أمكنه عند الأمير شاذّ، والمَكْنُ: بيض الضب قال:

وَمَكْنُ الضِبَابِ طَعَامَ العريّ ❀ بُ لاَ تَشْتَهِيه نُفُوسُ العَجم

والمِكْنَةُ بكسر الكاف: واحدة المكِنْ والمكِنات، وفي الحديث: **"أقِرُّوا الطيْرَ عَلَى مَكَانَتِهاَ ومُكُناتها بالضم"**.[2]

ومن خلال هذه التّعريفات التي تتوافق مع الكثير من التّعريفات المبثوثة في بطون المعاجم والقواميس القديمة، والحديثة حول مادة "كَوَنَ"، وما يتفرّع عنها من ألفاظ "كمَكَنَ" و"مَكَانة" وغير ذلك من المشتقّات، نتوصّل إلى أنّ المكان لدى اللغويين هو الموضع المشغول، والذي يدلّ على الخلقِ والموضعِ والمترلة.

هذا عن التّعريف المجرّد، أمّا إذا اقترنت لفظة المكان بكيان الإنسان ووجوده فإنّنا نحصل على لفظ يدّل دلالة عميقة على ضرورة الحياة الإنسانية، فالمكان هو الموضع الذي يولد ويخلق ويوجد فيه

[1] معجم العين، الفراهيدي، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج4، ط1، 2003، ص370.

[2] الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل ابن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت –لبنان، ط2، 1979، ج6، ص2206.

الإنسان، وهو الموضع الذي يستقرّ فيه، فالمكان إذن "مصدر لفعل الكينونة، والكينونة هي الخلق الموجود، والماثل للعيان الذي يمكن تحسّسه وتلمّسه".[1]

وإذا أردنا أن نضع أيدينا على تعريف المكان اصطلاحاً ولمس جمالياته فلابدّ أن نتطرّق إلى بعض الدراسات التي تناولته بالدراسة، والتي انبثقت عنها مفاهيم متعددة له.

لقد أخضِع المكان لمفاهيم فلسفية متعددة، ابتداءً من أفلاطون إلى غاية فلاسفة العرب، فقد رأى أفلاطون: "**المَكَانَ حَاوِياً وقَابِلاً للشيء**".[2] واعتبر "**أرسطو**" بعد مقدمة جدلية طويلة ردّ فيها على أقوال الفلاسفة في المكان بأنّ "**المكان هو نهاية الجسم المحيط، نهاية الجسم المحتوى**".[3]

ولقد ربط فلاسفة اليونان تعريف المكان بالحسيّة التي تعني "**سمة الصورة الذهنية للمكان لدى الإنسان البدائي هي صور مظاهر محسوسة تُشير إلى أمكان أو مواقع لها خصائص عاطفية**"[4]، فكانت الخطوة الأولى في صياغة الوعي بالمكان هي "**إدراكه إدراكاً حسيًّا محضاً**".[5]

أمّا الفلاسفة المسلمون فَهُم لا يختلفون في تعريفهم للمكان عن فلاسفة اليونان خاصّة في المنطق الحسّي، الذي يَكْمُن وراء تعريفهم للمكان، فابن سينا يذهب إلى أنّ "**المكان هو ما يكون الشيء مستقراً عليه، أو معتمداً عليه، أو مستنداً إليه**"،[6] سواءً أكان المكان حاوياً للشيء أو محيطاً بالجسم، أو أنّ الجسم مستقرّ عليه، فكُلُّ هذه التصورات عن المكان حسّية مرتبطة بوجود أشياء محسوسة، وعوامل فيزيائية، وفي نطاق منطقي.

وإذا كُنّا قد مهّدنا بالحديث عن المكان التي سعت الدراسات الفيزيائية إلى تحديد أطره وأبعاده، وبحثت الدراسات اللغوية والفلسفية عن تعريف حسيّ له، نجد فريقا آخر نظر إليه من جوانب وأبعاد

---

[1] الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، باديس فوغالي، عالم الكتب الحديثة، الأردن، 2008، ص170.

[2] الزمكانية وبنية الشعر المعاصر (أحمد عبد المعطي نموذجا)، موسى حمودة، ص16.

[3] المرجع نفسه، ن ص.

[4] المرجع نفسه، ص18.

[5] عبقرية الصورة والمكان، طاهر عبد مسلم، دار الشروق للنشر والتوزيع، رام الله، المنارة، 2002، ص16.

[6] الزمكانية وبنية الشعر المعاصر (أحمد عبد المعطي نموذجا)، موسى حمودة، ص22.

مختلفة، فرأو المكان أكثر من منظر طبيعي بحيث اعتبروه "**حالة نفسية ستعاد عن طريقها التّاريخي المتجذّر في اللاوعي المرتبط بهذا المكان أو ذاك، تتواجد به الأشياء التي نضيف إليها وعي وجودنا الخاص، وهو شيء ملموس جداً**"[1]

فالمكان الذي نقطنُه ونحلم بالعيش فيه، لا يبقى جامداً بالنّسبة للشاعر الذي يحتلّ المكان جزءاً كبيراً من ذاكرته، فيُسيطِر بذلك على خياله: "**المكان الذي يأسر الخيال لا يمكن أن يبقى مكاناً لا مبالياً خاضعاً لأبعاد هندسية وحسب، بل هو مكان عايش في النّاس ليس بطريقة موضوعية إنما بكل ما للخيال من تحيُّزات**"،[2] ليتشكّل في الأخير ما يسمى بـــ "أدب المكان".

لقد تعددت المصطلحات، واختلفت في المؤلّفات العربية التي تناولت المكان بالدراسة مع أنّ التّعريفات كلّها دارت على محور واحد تقريبا. فـــ '**خالدة سعيد**' أطلقت عليه تسمية "**المكان التاريخي**" وترى بأنّه: "**المكان الذي يستحضر لارتباطه بعهد مضى، أو لكونه علامة في سياق الزمن وهكذا يتّخذ المكان شخصية مكانية**"، أمّا '**ياسين النصير**' فقد ربط مفهوم المكان بالبناء الفني حيث يقول: "**إنّ المكان عندنا شأنه شأن أي عنصر من عناصر البناء الفنّي يتجدّد عبر الممارسة الواعية للفنان، فهو ليس بناءً خارجياً مرئياً، ولا حيّزاً محدد المساحة، ولا تركيباً من غرفٍ وأسْيِجَة ونوافِذْ، بل هو كيان من الفعل المتغيّر، والمحتوي على تاريخ ما**"[3]، فلو أمْعَنَّا النّظر في التّعريف السّابق لوجدناه لا يبتعد عن تعريف **جاستون باشلار*** الذي يعتبر المكان كياناً اجتماعياً يحتوي على خلاصة التّفاعل بين الإنسان ومجتمعه، وهو بالتّالي الأساس في تحديد أبعاد المكان الفنية.

نستخلص من جلّ تعريفات النّقاد السّابقة بأنّ المكان ليس مجرد مساحة للحياة إنما يمتلك دلالته على الصّعيد النّفسي والإيديولوجي والأخلاقي والاجتماعي والتاريخي، فـــ "**المكان لا ينحصر في**

---

[1] المرجع السابق، ص22.

[2] بلاغة المكان، فتيحة كحلوش، ص17.

[3] الزمكانية وبنية الشعر المعاصر، موسى حمودة، ص 23.

* غاستون باشلار، فيلسوف فرنسي يعتبر أول من نظّر لأدب المكان في كتابه "شعرية الفضاء"، وقد ركز في دراسته على الجانب النفسي للمكان.

استعراض محتوياته، وصُوَرِه بل ينبغي أن يُعاش كتجربة، ولن تتمّ الكتابة ما بنجاحٍ، ما لم نُعَانِ هذا المكان بِغضّ النّظر عن كيفية المعاناة".[1]

وبما أنّ لغتنا العربية لغة وجود تتجسّم بوجود الإنسان وتطوّره، تتفاعل دوماً بذاتها أو مع غيرها لتنتج لنا مفرداتها الحية، الكثير مما يحتمل التّأويل ويفي بالمعنى المطلوب، ولكن تلك الحيوية قد توقع الدّارسين باستخدام مفردة بدل أخرى دون الوقوف عند لغتها ومفهومها بشكلٍ صحيح.

هذا ما لِمستُه وأنا أحاور مصطلح المكان وما كتب عنه، فاستوجب عليّ ذلك الوقوف عند المصطلحات المقاربة له، وتمييز الحدود الخاّصة بين مصطلحي "الفضاء" و "المكان" بالإضافة إلى مصطلحات أخرى نحو: الامتداد، البيئة، الخلاء، الفسحة، الحيّز، يعتبر **'عبد المالك مرتاض'** أوّل من أثار فكرة الحيّز والفضاء في نقده التّطبيقي ولا سيما في كتابه **"ألف ليلة وليلة": تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية جمال بغداد"** 1993[2]

الامتداد **"هو جزء من المكان وهو مَتْنَاه، أمّا المكان فغير متناه"**،[3] أمّا البيئة فيختلف مفهومها باختلاف الميادين التي تستخدمها، ففي ميدان العلوم البحتة هي باختصار شديد **"القشرة الأرضية والغلاف الحيوي"** أمّا في ميدان علم الاجتماع وعلم النّفس فتطلق لفظة البيئة على **"مجموع الظروف والعوامل الخارجية التي تعيش فيها الكائنات الحيّة وتؤثّر في العمليات الحيوية التي تقوم بها"**، وقد أشار **أحمد الشايب** إلى أنّ لفظة (البيئة) في الدّراسات اللغوية والأدبية تدل على: **"مجموع العوامل المكانية والزمانية الأصلية أو الطارئة التي تتوافر في بقعة ما، وتكون منها جميعا".**[4]

فالبيئة بهذا الحدّ حاوية المكان – بمدلوله الجغرافي- فضلا عن الزمان والتيارات الاجتماعية.

---

[1] بلاغة المكان، فتيحة كحلوش، ص24.

[2] جماليات المكان في النقد الأدبي المعاصر، عبد الله أبو هدف، د.ط، د.ت، ص15.

[3] المكان والمصطلحات المقاربة له –دراسة مفهوماتية- غيداء أحمد سعدون شلاش، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد 11، العدد 2.

[4] أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، مكتبة النهضة، القاهرة، ط7، 1964، ص83.

الحيّز هو أيضاً من الألفاظ المرادفة أو المتعلّقة بلفظة (المكان) التي حظيت باهتمام دارسي المكان في الأدب، يرى الباحث **كريم رشيد** الذي حاول فكّ الاشتباك الاصطلاحي بين (المكان) و(الحيّز) أنّ "**الحيّز يشير إلى الصّلة بين الأجسام داخل المكان، وهو فارغ ذو ثلاثة أبعاد ليس كالمكان الممثّل لسطح ذي بُعدين**"[1] بمعنى آخر الحيّز يطلق في التّحديد والتضييق، أما بالنّسبة للخلاء فهي صفة من صفات المكان.

أمّا من المصطلحات التي كانت أكثر تصادماً مع المكان وسبَّبَتْ إشكالاً كبيراً خاصّة من حيث الترجمة هو مصطلح الفضاء، فالفضاء من وجهة النّظر الفلسفية سابق "**فالأمكنة جُزر في الفضاء جواهر (الأفراد)، أكوان صغرى منفصلة**"[2] داخل الفضاء، أمّا داخل الفضاء الأدبي، فالمكان هو أساس للفضاء الروائي: "**فكل مكان هو مصدر لأمكنة أخرى، نقطة النبع لسلسلة من المجاري الممكنة مروراً بمناطق أكثر أو أقل تحديداً**"[3]، في حين يفضّل البعض الاكتفاء بتشغيل الفضاء على الدّوام، أو في الغالب، وألاّ يذكر المكان إلا حين ينبغي أن يذكر.

في حين يرى **'محمد بنسيب'** أنّ: "**المكان منفصل عن الفضاء، وأنه سبب في وضع الفضاء، أي أنّ الفضاء بحاجة على الدوام للمكان**".[4]

وكثيراً ما يكون مفهوم الفضاء أكثر انفلاتاً وشساعةً من مثل هذه التحديدات الضيّقة كالوسط، الديكور، الشخصيات.

---

[1] المكان والمصطلحات المقاربة له –دراسة مفهوماتية–، غيداء أحمد سعدون شلاش، ص255.

[2] شعرية الفضاء السردي، حسن نجمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، د.ط، 2000، ص42.

[3] المرجع نفسه، ص44.

[4] المرجع نفسه، ص42.

المكان يلعب دوراً هاماً في تكوين هوية الكيان الجماعي، وفي التّعبير عن مختلف المقوّمات الثقافية فيصبح إشكالية إنسانية إذا ما اغتصب أو إذا ما حرمت منه الجماعة وبالتالي الفرد، لذا فإنّه يكتسب قيمة خاصّة، ودلالة مأساوية بالنّسبة للمستعمرين واللاجئين والمنفيين... و"**تجربة كيانية شاملة، يحول الشعراء موضوعه إلى قضية كاملة ويشكلون منه صورة ورمزاً وإيقاعاً، أي بنية عميقة إلى العالم، وموقفا صميميًّا من التاريخ..**"[1]

[1] المدنية في الشعر العربي الجزائري، إبراهيم رماني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائرية، ط1، 2002، ص5.

الفصل الأوّل
دلالات المكان وبلاغته

المبحث الأول: الدلالات النفسية والاجتماعية للمكان:

I. الدلالات النفسية للمكان:

إنّ للحالة النّفسية التي يتعرّض لها الشاعر أثر واضح في تشكيل رؤيته للأمكنة، فالشّاعر حينما تكتنفه حالة شعورية تجاه مكان ما، فإنّه يلجأ –عادة– إلى ترجمة مشاعره التي انتابته إلى مجموعة من الأبيات الشعرية تعطي تصوراً دقيقاً لحالته تلك، فالشاعر يعيش في ظلّ المكان "المكان –بالمعطى الفيزيقي–أكثر التصاقاً بحياة البشر من حيث أنّ خبرة الإنسان بالمكان وإدراكه له يختلفان عن خبرته وإدراكه للزّمان، فبينما يدرك الزّمان إدراكاً مباشراً من خلال فعله بالأشياء فإنّ المكان يدرك إدراكاً حسيًّا مباشراً".[1]

لعب المكان في حياة الإنسان منذ القديم ولا يزال دوراً أساسياً تجلّى أثره في تشكيل وجدانه على نحو معيّن، ووسم حياته بسمات خاصّة، تركت آثارها في تحرّكاته وسكناته، فكلّما لمس في المكان معاني الحماية والأمان والتأنّس اشتدّ لصوقه به ومتى ما لمس عكس ذلك وجَدناه يُوَلّي هارباً منه بل كارهاً له "وما الإقبال والإدبار إلا بسبب حالة شعوريّة خاصّة انتابت الشاعر حين لامس المكان ذاته فانقبض منه، أو انبسط له وسرّ به"[2]

انطلاقاً من هذا يمكننا أن نقسّم الدّلالات النّفسية إلى أقسام متعدّدة بحسب علاقة الشاعر النّفسية بالمكان، وهذه الأقسام هي:

1. الحنين إلى المكان:

الشعراء حين يغادرون أوطانهم سواء كانت هذه المغادرة باختيارهم أو قسراً، فإنهم يشعرون بالحزن والانكسار ويصبح ذلك الحنين "يعبّر عن عاطفة إنسانية صادقة ويرتبط في الأغلب الأعم بمحنة

---

[1] المكان في الشعر الأندلسي (عصر ملوك الطوائف)، أمل بنت محسن ما لم رشيد العميري، رسالة تكميلية لنيل درجة الدكتوراه في الأدب، جامعة أم القرى، المملكة السعودية، 2006، ص19.

[2] نفس المرجع، ن ص.

الغربة التي يفارق فيها الإنسان وطنه وأهله وأحبابه لظروف قسريّة"،[1] فعلى الرّغم من قدم هذا الباب في الشّعر العربي، لكن الأندلسيين ضربوا فيه بسهم وافر، وصدروا فيما نظموه فيه عن عاطفة صادقة وإحساس مرهف ونفوس معذّبة تجرّعت مرارة الغربة، يقول **محمد أحمد دقالي**: "**فقد كان شعر الحنين في هذه الفترة من أصدق ما قيل في هذا الباب، لأنّه صادر عن تجربة شعوريّة صادقة بيّنت مدى صدق العاطفة والشّعور بالانتماء والوطنية، وقد امتاز الأندلسي بشدّة حنينه وانتمائه إلى وطنه الأمّ**".[2]

يدور شعر الحنين عند الشّعراء الأندلسيين على موضوعات متعدّدة منها:

- **الشوق إلى الأوطان والتغنّي بها:**

عبّر الشعراء الأندلسيون عن شوقهم لأوطانهم من خلال التغنّي بجمال مُدنهم الأندلسية، فها هو **الرّصافي** يتغنّى بمدينة بلنسيّة قائلاً:[3]

بَلَنْسِيَةَ تِلْكَ الزَبْرجَدَةُ الَتِي ❀ تَسِيلُ عَلَيْهَا كُلُّ لُؤْلُؤَةٍ نَهْرَا
بِلَادِي الَتِي رِيشَتْ قُوَيْدِمَتِي بِهَا ❀ صَغِيرًا وَآوَتْنِي قَرَارَتَهَا وَكْرَا

وقال **ابن خفاجة** في التشوّق إلى الأندلس:[4]

إنَ لِلجَنَّةِ بِالَأَنْدَلُسِ ❀ مُجْتَلَىَ حُسْنٍ وَرِيَاً نَفْسِ
فَسَنَا صُبْحَتَهَا مِنْ شَنَبٍ ❀ وَدُجَى لَيْلَتِهَا مِنْ لَمَسِ
فَإِذَا مَا هَبَّتِ الرِيحُ صَبَّا ❀ صِحْتُ وا شَوقِي إِلَى الأَنْدَلُسِ

[1] الحنين في الشعر الأندلسي (القرن السابع الهجري)، محمد أحمد دقالي، دار الوفاء لدنيا للطباعة والنشر، الاسكندرية، ط1، 2008، ص11.
[2] المرجع نفسه، ص16.
[3] الأدب الأندلسي (النثر، الشعر، الموشحات)، فوزي عيسى، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2011، ص24.
[4] ديوان ابن خفاجة، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص84.

وعبّر شاعر آخر عن إعجابه بقرطبة ورأى أنها فاقت المدن الأخرى بأربع صفاتٍ حيث يقول:

بِـــأَرْبَعٍ فَاقَـــتِ الأَمْصَـــارَ قُرْطُبَـــةُ ❀ مِـــنْهُنَ قَنْطَـــرَةُ الـــوَادِي، وَجَامِعُهَـــا
هَاتَـــانِ ثُنْتَـــانِ، وَالزَهْـــرَاء ثَالِثَـــة ❀ وَالعِلْـــمُ أَعْظَـــمُ شَـــيْءٍ وَهُـــوَ رَابِعُهَـــا.[1]

وتغنّى شعراء آخرون بمدينة شاطبة وطبيعتها الجميلة ونسيمها العبق ورياضها الغنّاء، فقال بعضهم:[2]

نِعْـــمَ مُلْقَـــى الرَحْـــلِ شَـــاطِبَة ❀ لِفَتَـــى طَالَـــتْ بِـــهِ الرِّحْـــلُ
بَلْـــدَةٌ أَوْقَاتُهَـــا سَـــحَرُ ❀ وَصَـــبَا فِـــي ذَيْلِـــهِ بَلَـــلُ
وَنَسِـــيمُ عُرفَـــهُ أَرَجُ ❀ وَرِيَـــاضٌ غُصْـــنِهَا تَمْـــلُ
وَوُجُـــوهٍ كُلُهَـــا غَـــرَرُ ❀ وَكَـــلاَمٌ كُلُـــهُ مَثَـــلُ

كما تغنّى شعراء "غرناطة" بمدينتهم الجميلة التي لا نظير لها وشبّهوها بالعروس فقالوا:[3]

غَرْنَاطَـــةَ مَـــا لَهَـــا نَظِـــيرُ ❀ مَـــا مِصْـــرُ مَـــا الشَـــامُ مَـــا العِـــرَاقُ؟
مَـــا هِـــيَ إِلاَ العَـــرُوسُ تُجْلَـــى ❀ وَتِلْـــكَ مِـــنْ جُمْلَـــةِ الصِـــدَاقِ

وتغنّى شاعر آخر بجمال الأندلس ويقول:[4]

يَـــا حُسْـــنَ أَنْـــدَلُسٍ وَمَـــا جَمَعَـــتْ لَنَـــا ❀ فِيهَـــا مِـــنْ الأَوْطَـــارِ وَالأَوْطَـــانِ
تِلْـــكَ الجَزِيـــرَة لَسْـــتُ أَنْسَـــى حُسْـــنَهَا ❀ بِتَعَاقُـــبِ الأَحْيَـــانِ وَالأَزْمَـــانِ

[1] نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، تحقيق إحسان عباس، دار الصادر، بيروت، ج1، ص153.
[2] المصدر نفسه، ص186.
[3] المصدر نفسه، ص148.
[4] المصدر نفسه، ص228.

ويقول **'أبي حسن المريني'** في موشّح له يتشوّق فيه إلى "السدّ" وهو من متنزهات قرطبة"[1]

لِلـــــهِ عَصْـــــر لَنـــــاَ تَقْضِـــــي ❀ بِالسَـــــدِّ وَالمَنْظَـــــرِ البَهـــــيج
أَرَى إِذْكـــــارِي إِلَيْـــــهِ فَرْضًـــــا ❀ وَشَـــــوْقُهُ دَائِمًـــــا يهـــــيجُ

- **الشكوى من الغربة:**

عبّر الشّاعر الأندلسي عن آلام الغربة ونظرة النّاس إلى المغترب يقول **فوزي عيسى**: "**شعر الغربة هو الشعر الذي يصوّر أحوال الأندلسيين في مواطنهم الجديدة التي هاجروا إليها، وفيه يعبّر الشعراء عن تبرمهم وضيقهم بالحياة الجديدة التي لم يجدوا فيها عوضاً عن حياتهم التي عاشوها في وطنهم الأصلي**"،[2] فكثيراً ما تكون الغربة قسريّة بسبب ما يتعرض له الإنسان من ظلم وخوفٍ أو جوعٍ، أمّا الاغتراب فهو طوعي يختاره الإنسان التغريب "النفي عن البلدان والأوطان".[3]

لقد ذاق الشاعر الأندلسي لوعة الغربة والاغتراب، فهذا **أبو الحسن علي بن سعيد العسي** يرحل إلى مصر فتدركه وحشة الغربة، وتثير فيه الحنين إلى الأندلس فتسمعه يقول:[4]

أَصْـــبَحْتُ أَعْتَـــرِضُ الوُجُـــوهَ، وَلاَ أَرَى ❀ مَـــا بَيْنَهَـــا وَجْهًـــا لِمَـــنْ أَدْرِيـــهِ
عَـــوْدِي عَلَـــى بَـــدْئِي ضِـــلاَلاً بَيْـــنَهُمُ ❀ حَتَـــى كَـــأَنِي مِـــن بْقَايَـــا التِيـــهِ
وَيْـــحَ الغَرِيـــبِ تَوَحَشَـــتْ أَلْحَاظُـــهُ ❀ فِـــي عَـــالِمٍ لَيْسُـــوا لَـــهُ بِشَـــبِيهِ
إِنْ عَـــاد لِـــي وَطَـــنِي اعْتَرَفْـــتُ بِحَقِـــهِ ❀ إِنِّ التَغَـــرُبَ ضَـــاعَ عُمْـــرِي فِيـــهِ

[1] الأدب الأندلسي، فوزي عيسى، ص268.
[2] المرجع نفسه، ص105.
[3] الحنين والغربة في الشعر العربي، يحي الجبوري، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2008، ص17.
[4] نفح الطيب، المقري، ج3، ص29.

ونلمس الإحساس بالندم والسخط والتذمر من الحياة الجديدة في قول **أبي المعالي الإشبيلي**:[1]

أَنَـــا فِـــي الغُرْبَـــةِ أبْكِـــي ❀ مَـــا بَكَـــت عَـــيْنَ غَرِيـــبٍ
لَـــمْ اَكُـــنْ يَـــوْمَ خُرُوجِـــي ❀ مِـــنْ بِـــلاَدِي بِمُصِـــيبٍ

ونسمع **أبي بكر محمد بن القاسم الحجاري** يقول إثر إحساسه بالغربة وألم الفراق:[2]

أَيْن أَقْصَـى الغَـرْبِ مِـنْ أَرْضِ حَلَـب ❀ أَمَـلُ فِـي الغَـرْبِ مَوْصُـولُ التَّعَـبْ
حَـنِّ مِـن شَـوْقٍ إِلَـى أَوْطَانِـهِ ❀ مَـنْ جَفَـاهُ صَـبْرُهُ لَمَّـا اغْتَـرَبْ
يَـا أَحِبَّـائِي اسْـمَعُوا بَعْـضَ الَـذِي ❀ يَتلَقَّـاهُ الطَّرِيـدُ المُغْتَـرِبْ

ويصوّر **'ابن هشام القرطبي'** نظرة الناس للنازح الغريب وعدم ترحيبهم به ويتمسّك بالبقاء في وطنه، ويرفض النّزوح عنه لأيّ سبب من الأسباب فيقول:[3]

يا آمري أن أحـث العـيش عـن وطـني ❀ لمـا رأى الـرزق فيـه لـيس يرضـيني
نصـحت لكـن لي قلبـاً ينـازعني ❀ فلـو ترحلـت عنـه حُلّـه دُوني
لألـزمن وطـني طـوراً تطـاوعني ❀ قـود الأمـاني وطـوراً فيـه تُعصـيني
مُـدَلَّلاً بـين عرفـاني وأضـرب عـن ❀ سـير لأرض بهـا مـن لـيس يـدريني
هـذا يقـول غريـب سـاقه طـمع ❀ وذاك حـين أريـه الـبر يجفـوني

[1] المصدر السابق، ج4، ص113.
[2] المصدر نفسه، ج2، ص298.
[3] المصدر نفسه ج1، ص543.

- **إيثار الوطن على الاغتراب:**

قد آثر بعض الشعراء البقاء في الوطن مع الفقر، وشظف العيش على الاغتراب مع الغنى والسّعة، على نحو ما نرى في قصيدة **"أبي القاسم عامر بن هشام القرطبي"** الموسومة بـــ (**كنز الأدب**)، وفيها وصف لمتنزهات قرطبة وردّ على من حثّوه على الاغتراب من رفاقه ومنها:[1]

يَـــا مَـــنْ يُـــزَيِّنُ التِّرْحَـــال عَـــنْ بَلَـــدِي ❀ كَـــمْ ذَا تُحَـــاوِل نَسْـــلاً عِنْـــدَ عـــنّين
وأَيْـــنَ يَعْـــدِلُ عَـــنْ أَرْجَـــاءِ قُرْطُبَـــةٍ ❀ مَـــنْ شَـــاءَ يَظْفُـــر بِالـــدُنْيَا وَالـــدِينِ
قَطَـــر فَسِـــيحُ وَنَهْـــرُ مَـــا بِـــه كَـــدَرُ ❀ حَفَـــتْ بِشَـــطَّيْهِ أَلْفَـــافُ البَسَـــاتِينِ
يَا لَيْتَ لِـــي عُمْـــرَ نُـــوحٍ فِـــي إِقَامَتِهَـــا ❀ وَأَنَّ مَـــالِي فِيهَـــا كَنْـــزُ قَـــارُونِ

وهكذا فقد انسحب الحنين إلى الوطن عند الشاعر الأندلسي من خلال إحساسه بالاغتراب، وأكّد مدى تعلّق الأندلسيين ببلادهم، وعمق انتمائهم للأرض والوطن، وتشبّثهم بالمكان والبقاء فيه برغم كلّ المغريات.

2. **رثاء الأمكنة:**

بدأ الأندلس مجتمع المجد والعلم والشّعر والعمران والجمال والحسن والفن يذوب وينهدم، وينسل مغادراً مع بداية سقوط المدن الأندلسية في أيدي الإفرنجة انطلاقا من **طليطلة** ثم **سرقسطة** ثم **شنترين**، وبعد هذه النّكبات يدخل الموحّدون ويوقفون الزّحف النّصراني مدة من الزمن ثم يعود من جديد لخوض حروب الاسترداد فتسقط **بياسة وميورقة وبطليوس** في عشرينيات القرن 7هـــ، ثم **قرطبة** العاصمة **وبلنسية** في ثلاثينياته، وبعدها **مرسية ودانية وجيان وشاطبة وإشبيلية** في أربعينياته فكان تساقط المدن الأندلسية الواحدة تلوى الأخرى في أيدي النّصارى صدمة كبيرة هزّت نفوس الأندلسيين هزّا عنيفاً "فأذكت هذه المحنة لوعة الشعراء، واستثارت قرائحهم، فبكوا مدنهم بكاءً حاراً، وتفجّعوا على ضياعها،

[1] الأدب الأندلسي، سامي يوسف أبو زيد، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ط1، 2012، ص149.

ووصفوا ما أصابها على أيدي الأعداء من خراب وتدمير وما لحق بأهلها من صنوف العذاب وضروب الذلّ والهوان وجروا إلى غايتهم في هذا الضرب من الرّثاء حتى صار فنّا أصيلاً تميّزوا به".[1]

ينقسم الرّثاء في الأندلس إلى قسمين: فهناك مراثٍ في رثاء الأندلس عامة، وهناك مراثٍ أخرى تتناول المدن الأندلسية كلاّ على حده، ففي النّوع الأول ولعل أشهر قصيدة قيلت فيه هي نونية **أبي البقاء الزندي** التي يقول فيها:[2]

دَهَــى الجَزِيــرَةِ أمْــرٌ لاَ عَــزَاءَ لَــهُ ❀ هَــوَى لَــهُ أحــد وَانْهَــدَ ثَهْــلاَن
أَصَابَهَا العَــينُ فِــي الإِسْــلاَمِ فَامْتُحِنَــتْ ❀ حَتَــى خَلَــت مِنْــهُ أقْطــارُ وبُلْــدَانُ
فاسْــألْ بَلَنْســية: مَــا شَــأْنُ مُرْسِــيَةٍ ❀ وأَيْــنَ شَــاطِبَةُ أَمْ أَيْــنَ جَيَــانُ؟
وأَيْــنَ قُرْطُبَــةُ دَارُ العُلُــومِ فَكَــمْ ❀ مِنْ عَــالِمٍ قَــدْ سَــمَا فِيهَــا لَــهُ شَــأنُ؟
وأَيْــنَ حِمْــصُ ومَــا تَحْوِيــهِ مِــنْ نُــزَهٍ ❀ ونَهرُهَــا العَــذْبُ فَــيَّاضُ ومَــلآنُ؟
قَوَاعِــدُ كُــنَّ أَرْكَــان الــبِلاد فَمَــا ❀ عَسَــى البَقَــاءُ إذَا لَــمْ تَبــقَ أَركَــانُ

هذه القصيدة تصوّر إحساس شاعر أندلسي مظلوم، يقف وقفة حزن أمام تساقط المدن الأندلسية، فيتساءل في حسرة عمّا أصاب هذه المدن التي كانت في يوم من الأيام معاهد لنشر العلم ومسارح التنزه والتمتّع بمباهج الحياة.

ونجد أيضا قصيدة طويلة في رثاء الأندلس **لإبراهيم بن فرقد** الذي يقول فيها:[3]

ألا مســـــعد منجـــــرد وفطـــــن ❀ فيبكـــــي بـــــدمعٍ معـــــين هـــــيّن
جزيـــــرة أنـــــدلس حســـــرة ❀ ألا غالـــــب مـــــن حقـــــود الـــــزمن
وكانـــــت رباطـــــاً لأهـــــل التقـــــى ❀ فعـــــادت مناطـــــاً لأهـــــل الـــــوثن
وكانـــــت شـــــجى في حلـــــوق العـــــدى ❀ فأضـــــحى لهـــــم مـــــا لهـــــا محـــــتجنُ

[1] الأدب الأندلسي، فوزي عيسى، ص113.
[2] نفح الطيب، المقرّي، ج4، ص487.
[3] الأدب الأندلسي، فوزي عيسى، ص114.

والتي نتلمّس فيها شعور وطني عميق، فالشاعر يذكر مفردات الرّثاء والنّدب والبكاء والدموع ليعبّر عن حزنه لفراق ودمار هذا المكان الحبيب الذي طالما تنعّم فيه وذاق حلاوة العشق في رُبوعه.

أمّا في النّوع الثاني، فنجد رثاء الشعراء لمدينة طليطلة خاصّة أنّها أولى المدن الإسلامية التي وقعت في أيدي الإفرنج، فيقول أحدهم:[1]

طُلَيطِلَـــةُ أَبَـــاحَ الكُفْـــرُ مِنْهَـــا ❀ حِمَاهَـــا إِنَ ذَا نَبَـــأُ كَـــبِيرُ
فَلَـــيسَ مِثَالُهَـــا إِيـــوَانُ كِسْـــرَى ❀ وَلاَ مِنْهَـــا الخَوْرَنَـــق وَالسَّـــدِيرُ
أَلَمْ تَـــكُ مَعْقَـــلاً لِلـــدِّينِ صَـــعْبًا ❀ فَـــدَ للهِ كَمَـــا شَـــاءَ القَـــدِيرُ
وَكَانَـــت دَارَ الإِيمَـــان وَعِلْـــمٍ ❀ مَعَالِمُهَـــا الَتِـــي طُمِسَـــتْ تُـــنِيرُ
فَعَـــادَت دَارَ كُفْـــرٍ مُصـــطَفَاةٍ ❀ قَـــدْ اضْـــطَرَبَت بِأَهْلِيهَـــا الأُمُـــورُ

يتحسّر الشاعر هنا على مدينة طليطلة فبعدما كانت دار علمٍ وإيمان أصبحت دار كفر في أيدي الإفرنج.

نجد أيضا رثاء **'ابن الشهيد'** لمدينة **"قرطبة"**:[2]

فَلمِثْـــل قرطبَـــة يَقِـــل بُكَـــاءَ مَـــنْ ❀ يَبْكِـــي بِعَـــيْنٍ دَمْعهَـــا مُتَفَجِّـــرُ
دَارُ أَقَـــل اللَـــهُ عَثْـــرَةَ أَهْلِهَـــا ❀ فَتَبَرْبَـــرُوا وتَغَرَّبُـــوا وَتَمَصَّـــرُوا
فِـــي كُـــلّ نَاحِيَـــةٍ فَرِيـــقٌ مِنـــهُم ❀ مُتَفَطِّـــر لِفُرَاقِهَـــا مُتَحَيِّـــرُ
عَهْدِي بِهَا وَالشَـــمْلُ فِيهَـــا جَـــامِع مِـــن ❀ أَهْلِهَـــا وَالعَـــيشُ فِيهَـــا أَخْضَـــرٌ
وَرِيَـــاحُ زهرتِهَـــا تَفُـــوحُ عَلَـــيْهِم ❀ بِـــرَوائِح يَفتَـــرُ مِنْهَـــا العَنبَـــرُ

[1] الأدب الأندلسي، سامي يوسف أبو زيد، ص140.

[2] تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، إحسان عباس، دار الشروق للنشر، ج1، ط1، 2001، ص126.

كما نجد العديد من الشعراء الذين تحسّروا على المساجد والمآذن والمحراب، إستنطقوها قائلين:[1]

فَوَاحَسْـــرَتَاكُم مِـــنْ مَسَـــاجِدَ حُوِّلَـــتْ ❀ وَكَانَت إِلَـــى البَيْـــتِ الحَـــرَامِ شُـــطُورُهَا
فَمِحْرَابُهَـــا يَشْـــكُو لِمِنْبَرِهَـــا الجَـــوَى ❀ وَآياتِهـــا تَشْـــكُو الفِـــراقَ وسُـــورُهَا

المكان وإن كان جامداً بلا روح فهو عند الشعراء كائن حي كالإنسان، فإذا ما فُقِد رثاه الشاعر وأظهر التحسّر والتفجّع والبكاء على فقدانه ممّا يؤكّد قوة وعمق الصلة الحميمية بين الشاعر والمكان، فالشاعر على الرغم من معرفته بانتهاء هذه المدن فإنّه يعقد حواراً معها وكأنه يرفض موتها ويرغب في إحيائها مرة أخرى، غير أنّ المكان يؤكد له الزوال.

II. الدلالات الاجتماعية للمكان:

للمكان في الشعر الأندلسي دلالات أخرى إلى جانب الدلالات النّفسية، فالشاعر يستحضر المكان ليرمز به إلى بعض القيم الاجتماعية السّائدة في عصره، وخاصّة أنّ ما ميّز البنية الاجتماعية الأندلسية أنّ أغلبيتها شعراء، يقول **محمد أبو حسين**: "**يتميّز المجتمع الأندلسي عن غيره بأنّه مجتمع يكاد يكون كله شعراء، فكان الحسّ الشعوري سمة مشتركة بين أفراده**".[2]

لقد شغف الأندلسيون بفن الشعر شغفاً أذكى في نفوسهم نساءً ورجالاً جذوة الشعر، مما جعل الأندلس تمتلئ شعراء وشاعرات، فازدهرت البيئة الأندلسية بعدد وافر من الشعراء، ومما ساعد على ذلك **الطبيعة الخلاّبة** التي حباها الله إيّاها، **والقصور الأنيقة** التي تنافس الملوك والخلفاء في بنائها وأغرموا بتزيينها وزخرفتها، بالإضافة إلى **مجالس الشرب واللهو والغناء**، يقول **عبد الحليم كيوط**: "**ساعدت الطبيعة الأندلسية الفاتنة في نضوج الشعر وزادته حلاوةً، وكان لمجالس الأُنس والبهجة الأثر الكبير في تنوّع أغراض الشعر وبخاصّة الوصف، فوصف الشعراء ذلك الجمال الطبيعي كما وصفوا الحدائق**

[1] الأدب الأندلسي: سامي يوسف أبو زيد، ص144.
[2] صورة المرأة في الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، محمد صبحي أبو حسين، عالم الكتب الحديثة، الأردن، ط2، 2005، ص7.

والقصور والأبنية وما فيها من صور وأشكال وتماثيل وزخارف، كما وصفوا مجالس الشرب واللهو والسمر والغناء والرقص وآلات الطرب".[1]

كثيراً ما كان يذكر المكان في الشّعر الأندلسي، رغبة في التمتّع بما فيه من جمال فينتقل من حدوده وماديته الجامدة إلى مكان ينبُض بالحياة والأحاسيس الشاعرية، فتوصف الرّياض والقصور والدور ومجالس الأنس لإبراز ما فيها من جمال، يظهر تفاعل الشعراء معها وامتزاج مشاعرهم بأجواء ذلك المكان، "**التكوين البشري للمجتمع الأندلسي كان مزيجاً من عناصر كثيرة، وأن هذه العناصر والجناس امتزجت مع بعضها البعض امتزاجاً تسرّب في عقولهم، فكانت لهم نزعة عقلية جديدة ساعد على تكوينها بيئة طبيعية غنية حافلة بشتى المناظر والصور الجميلة**".[2]

يقول **ابن خفاجة** في وصف الأندلس:[3]

يَـــا أَهْـــلَ أَنْـــدَلُسٍ لِلـــه دَرُّكُـــمُ ❀ مَـــاءُ وَظِـــلُ وَأشْـــجَارُ وَأنْهَـــارُ
مَـــا جَنَـــةُ اللَـــه إلاَّ فِـــي رُبُـــوعِكُم ❀ وَلَـــوْ تَخيَّـــرْتُ، هَـــذِي أكُنْـــتُ أختَـــار

ويتغنى **'ابن سفير المريني'** بالطبيعة قائلا:[4]

فِـــي أَرْضِ أنْـــدَلُسٍ تَلَتـــذّ نَعْمَـــاءُ ❀ وَلاَ يُفَـــارِقُ فِيهَـــا القَلْـــبُ سَـــرَّاءُ
أَنْهَارُهَـــا فِضَـــةٌ، وَالمِسْـــكُ تُرْبَتَهَـــا ❀ وَالخَـــزُ رَوْضَـــتَهَا وَالـــدُّرُ حَصْـــبَاءُ
وَللْهَـــوَاءِ بِهَـــا لُطْـــفٌ يَـــرِقُ بِـــه ❀ مَـــنْ لاَ يَـــرِقُ، وَتَبْـــدُو مِنْـــهُ أَهْـــوَاءُ

[1] محاضرات في الأدب الأندلسي والمغربي والمملوكي، التركي، عبد الحليم كيوط، قسم اللغة والأدب العربي، 2015/2014، ص23.
[2] صورة المرأة في الأدب الأندلسي، محمد صبحي أبو حسين، ص20.
[3] ديوان ابن خفاجة، ص72.
[4] نفح الطيب، للمقري، ج1، ص19.

ويقول **ابن هانئ الأندلسي** وصف الغيث:[1]

أَ لُؤْلُـــؤُ دَمْـــعَ هَـــذاَ الغَيْـــثِ أَمْ نُقَـــطُ؟ ❀ مَـــا كَـــانَ أَحْسَـــنَهُ لَـــوْ كَـــان يُلـــتَقَطُ
بَـــيْنَ السَـــحَابِ وبـــيْنَ الـــرِيحِ مَلحَمَـــةُ ❀ قَعَـــاقِعُ، وَظُـــبىً فِـــي الجَـــوِ تُختَـــرَطُ
كَأَنَـــهُ سَـــاخِطٌ يَرْضَـــى عَلَـــى عَجَـــلٍ ❀ فَمَـــا يَـــدُومُ رِضَـــى مِنْـــهُ وَلاَ ســـخَطُ
أَهْـــدَى الرَبِيـــعُ إِلَيْنَـــا رَوْضَـــةً أنفًـــا ❀ كَمَـــا تَـــنَفَسَ عَـــنْ كَـــافُورِهِ السَـــفَطُ

كما نجد أيضا مشاركة الوشاحين في التغنّي بالطبيعة يقول **فوزي عيسى**: "**شارك الوشاحون الشعراء في الالتفات إلى مجال الفتنة في بلادهم فوصفوا كثيراً من مظاهر الطبيعة كالرياض والأودية والمتنزّهات والأنهار وامتزجت أوصافهم للطبيعة بأغراض أخرى ...، الوشاح يصف الطبيعة لصلته الوثيقة بها، ولإحساسه بأنها جزء لا يتجزأ من نفسه**"[2]، فكانت المتنزهات والرياض والأودية مصدر وحي وإلهام لكثير من الوشاحين، ومن ذلك موشحه **لأبي الحسن بن مسلمة** يصف فيها وادي ريه يقول:[3]

بِـــــــــــــوَادِي رِيـــــــــــــهِ ❀ اخْلَـــــــــعْ عَـــــــــذَارَ التَصَـــــــــابِي
أَمَـــــــــا تَـــــــــرَاهُ مُفَـــــــــرَعُ ❀
مِثْـــــــــلَ الصَـــــــــبَاحِ المُرَصَـــــــــعْ ❀
بِـــــــــالرَوْضِ عَـــــــــادَ مُجْـــــــــزَعْ ❀
سَـــــــــــقَاهُ رِيـــــــــــهِ ❀ مِـــــــنْ صَـــــــفَرِ مَـــــــاءِ السَـــــــحَابِ

[1] الأدب الأندلسي، سامي يوسف أبو زيد، ص174.
[2] الأدب الأندلسي، فوزي عيسى، ص266.
[3] المرجع نفسه، ن ص.

فالموشّحة هنا تعكس إعجاب ابن مسلمة بوادي ريه الغنيّ بجماله وسحره حيث يتفرّع جداوله وأنهاره بمياهها اللاّمعة في منظر بهيج، فتبدوا بما يتناثر عليها من سمات ترصّع صفحاتها أشبه بالصباح المرصّع بالجواهر، ويصف الروض وقد سقته مياه السّحاب.

كما كان الشّاعر يستحضر المكان ليرمز به للرفاهية والنعيم والاستئناس، من ذلك ما قيل في وصف مجالس الأُنس والطرب واللّهو والقصور، يقول **علي بن أحمد** في وصف مجالس الطّرب:[1]

قُـــمْ فَاسْـــقِنِي وَالرِيَـــاضُ لَابِسَـــةً ❀ وَشِـــيًا مِـــنْ النَـــوْرِ حَاكَـــهُ القَطْـــرُ
فِـــي مَجْلِـــسٍ كَالسَـــمَاءِ لَـــاحَ بِـــهِ ❀ مِـــنْ وَجْـــهِ مَـــنْ قَـــدْ هَوَيْتَـــه بَـــدْرُ
وَالشَـــمْسُ قَـــدْ عَصْـــفَرَت غَلاَئِلُهَـــا ❀ وَالأَرْضُ تُنـــدِي ثِيابُهـــا الخُضْـــرُ
وَالنَهْـــرُ مِثْـــلَ المَجْـــرِ حُـــفَ بِـــهِ ❀ مِـــن النَـــدَامَى كَوْكَـــبٌ زُهْـــرُ

ويقول **ابن هانئ الأندلسي** في وصف مجالس اللهو:[2]

والأَبَـــارِيقُ كَالظِبَـــاءِ العَـــوَاطِي ❀ أَوْجَسَـــتْ نَبْـــأَةَ الجِيَـــادِ العِتَـــاقِ
مُصْـــغِيَاتُ إِلَـــى الغِنَـــاءِ مُطِـــلاَ ❀ تُ عَلَيْـــهِ كَـــثِيرَةُ الإِطْـــلاَقِ

وما يلفت الانتباه أن وصف الطبيعة جاء ممزوجاً بأغراض أخرى وخاصة بوصف الخمر، حيث أنّ مجالس الخمر لم تعد تُعقد في البيوت والحانات فحسب، إنّما أصبحت تُقام على رحاب الطّبيعة التي أصبحت مسرحاً لها، بل إنّ وصف الطبيعة كثيراً ما طغى على وصف الخمر ذاتها في الشعر الذي اتّجه فيه الشعراء إلى وصف تلك المجالس، يقول **إحسان عباس**: "**أصبح المنظر الطبيعي كالقاعدة او العامل الكيميائي المساعد في القصيدة الأندلسية، فهو فاتحة القصيدة**"[3]

---

[1] نفح الطيب، المقري، ج2، ص180.
[2] الأدب الأندلسي، سامي يوسف أبو زيد، ص176.
[3] تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، إحسان عباس، ج2، ص162.

كما عرفت الأندلس أيضا بقصورها الأنيقة الفاخرة الدالة على رفاهية أمرائها وثرائهم، يقول **سامي يوسف أبو زيد: "حفلت مدن الأندلس بالقصور الأنيقة والمساجد والحمامات والبرك والأحواض والجسور التي بقيت آثارها حتى اليوم، ومنها القصر الكبير والمسجد وقصر الزهراء وقصر الزاهرة في قرطبة، وقصر إشبيلية وقصر الحمراء الذي شيّده بنو الأحمر في غرناطة"**[1]

المكان ينتقل مع الأديب، وتتناسج خيوطه تبعاً لرؤيته وتفاعلاته الوجدانية مع مختلف العلائق الخارجية التي تثيرها الظروف والأحوال، والعلائق الداخلية التي تثيرها مشاعره وأحاسيسه.

[1] الأدب الأندلسي، سامي يوسف أبو زيد، ص41.

المبحث الثاني: بلاغة المكان:

توطئة:

تتعمّق أهمية المكان حين يوفّر للأديب الأدوات الفنّية الجمالية التي تمتلك إمكانية انتقاله من مكان جغرافي بهندسته المحدودة إلى مستوى الكينونة الفنية، ويصير جزءاً من وجدان الشاعر، فيتحول إلى فضاء دلالي رحب تتحكّم في صورته المكانية لغة يحكمها الخيال، ممّا يعني أن المكان الحقيقي لا يحتفظ بخصائصه حيث يتجاوز خيال الشاعر "**قشرة الواقع إلى ما قد يتناقض مع هذا الواقع، غير أنّه يظل مع ذلك واقعاً محتملاً إذ أنّ جزئياته تكون حقيقة، ولكنّها تدخل في سياق حلمي يتخذ أشكالا لا حصر لها**".[1]

فيبتعد الشاعر بذلك عن الألفاظ بمعناها القاموسي، ليوظّف كلمات شعرية غنية بالدلالات "**فيترع إلى تجسيد جزئيات المكان وتفاصيله، لتتناسق في الروح وتتساوق، فيترك هذا التساوق تأثيراً في نفس المتلقي، فيعيد الشاعر صياغة المكان وتشكيله من جديد**".[2]

فبلاغة المكان يقصد بها الصيغة الفنية التي تعكس الوعي الجمالي عبر رؤية خاصة عمادُها الخيّال والوجدان من خلال بنية رمزية تصويرية تُعيد صياغة الزّمن وترتيب المسافات وضبط الإيقاع المتبادل بين الداخل والخارج ضمن وعيٍ ناقد وشاملٍ.

[1] بلاغة المكان، فتيحة كحلوش، ص243.

[2] الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، باديس فوغالي، ص209.

1. الصورة الشعرية:

الصورة الشعرية واحدة من الأدوات الأساسية التي يستخدمها الشاعر في بناء قصيدته وتجسيد الأبعاد المختلفة لرؤيته الشعرية، فبواسطة هذه الصورة "**يشكّل الشاعر أحاسيسه وأفكاره وخواطره في شكل فني محسوس، وبواسطتها يصوّر رؤيته الخاصّة للوجود وللعلاقات الخفيّة بين عناصره**".[1]

وقبل التعمّق في كيفية بناء الصورة الشّعرية وعلاقتها بالمكان، نقف لنحدّد مفهومها، فالصّورة الشّعرية عند **عزوز زورقان** مرتبطة بالشّعر حيث يقول في ذلك: "**الصّورة الشّعرية يتم من خلالها الكشف عن روح الشّعر، وهذا يعني الكشف عن نفسيّة قائله ثم جمالية نصّه، لذلك كانت تصويراً لمختلف الانفعالات والأحاسيس والمشاعر، وما على الشاعر إلا أن يحسن اختيارها وما يتوافق وأمزجة الناس محدّداً بذلك جلّ أهدافه من هذا التّصوير**"[2]، فمن خلال الشّعر نلتمس نفسيّة الشاعر لأنّه من خلاله ينقل لنا أفكاره وعواطفه فينقلنا من العالم الخفي إلى الواقع الموجود، ويشدّد **جون كوهن** على هذا الموقف في مقدمة كتابه "**بنية اللغة الشّعرية**" يفتتحه بقوله: "**الشّعرية علم موضوعه الشعر**"[3]، فلكي تكون الصّورة الفنية أكثر شعرية يعتمد فيها على لغة الشّعر، لأنّ لغة النثر لغة دالّة بينما نجد هذه الدّلالة تتراجع في الأولى – لغة الشّعر– لتقدّم بدلاً منها خصائص أخرى كـــالوزن والإيقاع والتّصوير وهذا ما يؤكّد قول **عبد القادر الرباعي**: "**الصّورة الشّعرية هو عالم تذوب فيه ظواهر الأشياء الشّكلية المحدودة، لتنقلب أوضاعاً فكريّة روحيّة لا يمكن تحديدها أو تقييد حريّتها، وبهذا لا يبقى الشعر زخرفاً وإنما يتحوّل إلى تلوين داخلي عميق يستشار بالكلمة والصّورة والإيقاع**".[4]

الصّورة الشّعرية تخاطب الرّوح والإحساس والخيال معاً، فكلّ هذه المكوّنات تتداخل مع بعضها لكي توصلنا إلى الصّورة الجمالية الفنيّة.

---

[1] عن بناء القصيدة العربية الحديثة، علي عشري زايد، مكتبة ابن سينا للطباعة والنشر، القاهرة، ط4، 2002، ص25.

[2] الصورة الفنية في الشعر الاستعراضي (الصورة الاستعارية أنموذجا)، عزوز زرقان، مجلة الأثر جامعة برج بوعريريج، الجزائر، العدد 14، جوان 2012، ص03.

[3] بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، تحقيق: محمد الولي ومحمد الغمري، دار توبقال للنشر، المغرب ط1، 1986، ص01.

[4] الصورة الفنية في النقد الشعري، عبد القادر الرباعي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان 2009، ط1، ص9.

أمّا د. **جابر عصفور** فيحدّد أهمية الصّورة بقوله: "**تتمثّل أهمية الصّورة الفنّية في الطّريقة التي تفرض بها علينا نوعاً من الانتباه للمعنى الذي تعرضه وفي الطريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى وتتأثّر به، إنها لا تشغل الانتباه بذاتها، إلاّ أنها تريد أن تلفت انتباهنا إلى المعنى الذي تعرضه وتُفجِنا بطريقتها في تقديمه**"،[1] فليست الصّورة الشّعرية حليّ زائفة أو فقط وسيلة لشرح فكرة ما كما كان يعتمد، لكنّها وسيلة تعتمد لتكثيف الأثر الجمالي على العكس مما هو موجود في النثر حيث تضطلع الصورة بتقريب الفكرة من النّاس وحسب، فهي تجذبنا إلى المعنى المراد قصده بطريقة فنّية جماليّة بحيث "**ترتقي بالشعر إلى الشعرية**".[2]

يلجأ الشاعر إلى مجموعة من الوسائل الفنية لتشكيل صورته الشّعرية على نحو يكسبها قيمة إيحائية وتعبيرية أغنى، ومن هذه الوسائل نجد **التشخيص** الذي يقوم بتصوير المعاني المجرّدة ومظاهر الطّبيعة الجامدة في صورة كائنات حيّة وتتحرك وتنبض بالحياة، فامتزجوا بالطبيعة حتى أوجدوا لها فناً سميّ بشعر الطبيعة، يقول **سامي يوسف أبو زيد** : "**شعر الطبيعة هو الشّعر الذي يتّخذ من عناصر الطبيعة الحيّة، والطبيعة الصامتة مادّته وموضوعه**"[3]، فقد كانت من النّزاعات الواضحة لبعض الشعراء الهرب إلى الطبيعة، يسقطون عليها أحاسيسهم ويشخصون مظاهرها، لتصبح بعد ذلك "وسيلة أساسية من وسائل تشكيل الصّورة في كلّ شعرنا العربي بكل اتجاهاته وتياراته المختلفة".[4]

حيث تحوّلت الطبيعة في ذهن الشاعر عالماً إنسانياً، فتمثّل له الروض ذكراً، والسماء أنثاه، فأقام بينهما علاقات غرامية شبيهة بعلاقات العشّاق، لذلك جاء وصفه طافحاً بعواطف الأحياء وإحساساتهم.

لنجد بعد ذلك تراسل الحواس وهي وسيلة عني بها الرّمزيون ومعناها "وصف مدركات حاسّة من الحواس، بصفات مدركات حاسّة أخرى، فتعطي للأشياء التي ندركها بحاسّة السمع صفات الأشياء التي ندركها بحاسّة البصر، وتصف الأشياء التي ندركها بحاسّة الذوق بصفات الأشياء التي ندركها بحاسّة

[1] الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ص226.
[2] الأدب الأندلسي، سامي يوسف أبو زيد، ض79.
[3] المرجع نفسه، ص ن.
[4] عن بناء القصيدة العربية الحديثة، علي عشر زايد، ص77.

الشم، وهكذا تصبح الأصوات ألواناً والطعوم عطوراً"[1]، وقد شاعت هذه الوسيلة أكثر في القصيدة العربية الحديثة، على أنّه لم يقف عبث الشاعر بالعلاقات المألوفة بين عناصر الصور عند حدود الجمع بين الأشياء المتباعدة عن طريق تراسل الحواس وغير ذلك من الوسائل الفنية، وإنما تجاوز الأمر ذلك إلى مزج المتناقضات في كيان واحد كأن يصف الثّلج بالسواد، فيسهم المزج بين هذه المتناقضات في الإحياء بالأحاسيس والمشاعر.

فقيمة الصورة الشّعرية تزداد بقدر ما يضفي الشّاعر من ذاته على ظواهر الطبيعة، فنتلقى الأشياء كما بدت لحواس الشاعر وعواطفه، لا كما هي عليه في الواقع وعلى هذا تكون الصّورة في الواقع إبداعاً جديداً للعالم وفق تصورات الشاعر ورؤاه.

2. المكان والبنية الخالية:

يقوم الخيال بدور أساسي في تشكيل شعرية المكان من خلال علاقة عناصره بالمكان لينتج من تلك العلاقة ما يسمى **بالمكان الخيالي**؛ والمكان الخيالي يختلف عن المكان الجغرافي في مضمونه حيث أن الكلمة فيه لا تعبّر عن الوجود دفعة واحدة إنما هي كلمة شعرية غنية الدلالات يصبح المكان فيه مقبوضاً عليه بواسطة الخيال لأنّه مكان متعدّد الأبعاد يثير بدوره خيال القارئ كما يثير مشاعره المختلفة، ويشترط لمتخيل هذا المكان "**أن يكون وحيداً غارقاً في التأمّل حيث تنعدم المسافة بين النفس والمكان الخارجي، فيشعر المتخيّل بأنّه ينفتح للعالم والعالم ينفتح له**"[2]، لكن ما أخذ على أصحاب هذه النّظرية أنهم بالغوا في الانعزال والتأمّل حتى أصبح تخيّل المكان بالنّسبة إليهم يشبه التصوّف والحقيقة أنّ الالتحام العاطفي والخيال بمكان ما قد يحدث حتى ونحن في زحمة الناس والحياة.

[1] المرجع السابق، ص78.

[2] بلاغة المكان، فتيحة كحلوش، ص244.

عندما نتحدث عن علاقة المكان بالخيال لا بدّ لنا أن نتحدّث عن علاقة الصورة الاستعارية بالمكان، وكيف يتم بناؤها؟ فالصورة الاستعارية لون بلاغي شائع في الشعر منذ القديم، قال عنها **أرسطو**: "**إن أعظم شيء أن تكون سيّد الاستعارات**"[1] ليؤكّد بذلك على الدور الجمالي الخالق الذي تلعبه الاستعارة في بناء النّص الشعري ويجعلها سرّ الشعر المطلق، وهو السرّ الذي انتبه إليه **عبد القاهر الجرجاني** حينما حاول توضيح خصائصها قائلا: "**إنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرساء مبنيّة والمعاني الخفية بادية جليّة**"[2] فهي تشكل أداة من الأدوات الفنية التي يجسّد بها الشاعر رؤيته الشعرية الخاصة ويحدد بها أبعاده.

أمّا الصورة الاستعارية في علاقتها بشعرية المكان "**تتحقق من خلال ربط عناصر المكان الحسيّة بالخواطر الرّوحية، أو تجسيد المعنويات المتعلّقة بالمكان والبعد عنه في شكل ماديات**"،[3] فالصورة تجعل المكان فاعلاً وتنسب له الفعل، وتحوّل المكان إلى شخص يخاطب ويتكلّم وهذا ما يعرف بالتشخيص، فأغلب الصور الاستعارية المتعلقة بالمكان هي صورة تشخيصية بحيث ينحرف التعبير الشّرعي حول المكان إلى حد أنّ هذا الأخير يتحوّل إلى شخص جدير بالمحادثة.

تقوم في علاقتها بالمكان على أساسين: الأساس الأول يتعلّق بحبّ المكان وما ينشأ حوله من صورة السّعادة والابتهاج والتشوّق إليه، والأساس الثاني يختصّ بعدوانية المكان وما يتولّد عنه من صور الحقد والاستفزاز، "**الصورة الاستعارية تختلف من نص المكان المحبوب إلى نص المكان المعادي، فتختلف بالتالي استجابة القارئ للصورة فيشترك مع الكاتب في متعة المكان حيناً وفي لغته حين آخر**".[4]

كما لا يجدر بنا أيضا أن نغفل الصورة التشبيهية وعلاقتها بالمكان، فالتشبيه يعتبر من أهم الألوان البلاغية لأن فائدته هي التوضيح، ولعلّ هذه النّظرة إليه ساهمت في جعل الشعراء يحفلون به أكثر من أي

---

[1] المرجع السابق، ص244.

[2] أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص22.

[3] بلاغة المكان، فتيحة كحلوش، ص249.

[4] المرجع نفسه، ص248.

لون آخر، تتجلّى علاقة المكان بالصورة التشبيهية في محاولة إخراج المكان من جماده إلى حيويته **"فالصورة التشبيهية لا تعني إعطاء صفات المكان وخصوصياته بتشبيههما بأمور أخرى، بل إنّ الشاعر قد يربط بين المكان وأشياء بعيدة عنه، وقد ينطلق من تشبيه بعض أشياء المكان أو أحداثه بأشياء أخرى لتؤدّي في النص دلالات مختلفة"**[1] أي أنّ الصورة التشبيهية يكمن دورها الجمالي في قدرتها على إيجاد العلاقات بين الأشياء التي لا علاقة بينها.

نصل في الأخير إلى أن الخيال هو الذي يلتقط عناصر الصورة الشعرية من الواقع المادّي المحسوس، فيعيد تأليف هذه العناصر والمكونات لتصبح صورة للعالم الشعري الخاص بالشاعر بكل ما فيه من مكونات شعورية ونفسية وفكرية شامخة أمام الأبصار، وتتعمّق تلك الأهمية أكثر حين توفّر للأديب الأدوات الفنية والجمالية التي تمتلك إمكانية الانتقال بالمكان من مستوى الوجود "الطبوغرافي" الماثل في الواقع بتضاريسه ومعالمه، إلى مستوى الكينونة الفنية أين يصير جزءاً من وجدان الشاعر، لأنّ **"المكان الطبوغرافي يزول لمجرد تخطّي الإنسان حدوده، في حين يحتفظ المكان في التجربة الإبداعية بلحمته ويضمن التواصل مع المبدع، لتنتقل العدوى بعد ذلك إلى الآخرين من خلال عملية التأثير والتأثّر"**[2].

الصورة المكانية هي الصّورة المضاعفة بأسلوب فني يقوم على أثر المكان أو أحد أنماطه واقعاً أو مفترضاً أو متخيلاً تحمل أسساً جمالية ذات أبعاد ودلالات معنويّة ونفسيّة ورمزية غير محدّدة تكشف عن جوهر التجربة الإبداعية عند الشاعر.

ومن أجمل القصائد التي أعطت للمكان الخيالي صورة واضحة، قصيدة "وصف الجبل" **لابن خفاجة** إذ أشرك النفس الإنسانية بسرّ الطبيعة، فشخّص لنا الجبل وتخيّله شيخاً وقوراً يتبادل الحديث معه فيقول:[3]

وأَرْعَـــنَ طمّـــاحِ الدوابـــةِ بـــاذِخٍ ❀ يُطـــاول أَعنَـــانَ السَّـــمَاءِ بِغـــاربِ

---

[1] المرجع السابق، ص274.

[2] الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، باديس فوغالي، ص182.

[3] ديوان ابن خفاجة، ص216.

يَسُدُّ مهــبَّ الــرِّيح عــن كــل وجهــةٍ ويــــزحمُ لــــيلاً سُـــــهُبَهُ بالمناكِـــــبِ
وَقُـــورٍ علـــى ظهـــرِ الفُـــلاَةِ كأنّـــهُ طِـــوَالَ اللّيـــالي مُطـــرقُ في العواقـــبِ
يلـــوثُ عليـــهِ الغـــيمُ سُـــودَ عَمَـــائِمٍ لها مـــن ومـــيضِ الـــبرقِ حُمْـــرُ دَوَائِـــبِ
أصَـــحتُ إليـــهِ وهـــو أَخْـــرَسُ صـــامتُ فَحَـــدّثني ليـــل السُّـــرى العجائـــبِ
وقـــال ألا كـــم كنـــتُ ملجـــأ فاتِـــكٍ ومـــــوطِنَ أوّاهٍ تبتَّـــــلَ تائِـــــبِ
وكـــــم مـــــرّ بي مُـــــدلجٍ ومُـــــؤدِّبٍ وقـــال بظلـــيّ مـــن مطـــيّ وراكـــبِ
ولاَطَـــمَ مـــن نُكـــب الرّيـــاح معـــاطِفِي وزاحَـــمَ مـــن خُضـــر البِحـــار جـــوانبي
فمـــا كـــان إلاّ أن طـــوتْهُم يـــدُ الـــرَّدى وطَـــارَتْ بِهِـــمْ رِيـــحُ النّـــوى والنّوائِـــبِ

يصف الشاعر الجبل ويسرد علينا الحوار الطريف الذي دار بينه وبين الجبل، وصوّر السحب التي تحيط بقمّة الجبل بالعمامة السوداء، وصوّر وميض البرق بذوائب حمر تتدلى من تحت تلك العمامة، كما أنّه صوّر الرّدى على أنّه مخلوق هائل له يد تطوي الناس جميعاً وصوّر النّوى والنوائب بالطيور الضخمة التي تحمل الخلق وتطير بهم ليدلل على حتمية الموت والفناء.

وما ساعد على تشكيل شعرية المكان بالإضافة إلى الخيال اللغة " **إنّ التّقدير الفني مستحيل استحالة تامّة، إلاّ إذا ربطنا بين اللغة وبين مدلولاتها الحسيّة، في طبيعة البيئة ومدلولاته الوجدانية في داخل الشاعر**"[1] فبواسطة اللغة يواجه الشاعر العدم ويثبت وجوده ويحفظ المكان من الاندثار، ويخرج من المكان إلى مكان أكثر من المكان أي المكان الشعري.

[1] وظيفة الأدب بين الالتزام الفني والانفصال الجمالي، محمد نويهي، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1997، ص162.

الفصل الثاني:

دلالات المكان في العصر الغرناطي

توطئة حول العصر الغرناطي أو دولة بني الأحمر:

شهدت الأندلس حالة من الفوضى والاضطراب بعد زوال الموحّدين منها لم يستطع محمد بن هود صاحب بطليوس أن يصمد في وجه ملوك الإسبان ولا أن يحرس مملكته، فاستولى الإفرنج على قرطبة سنة 633 هـ/1235م وكان سقوطها كارثة عظيمة، قتل ابن هود في المريّة و لم يبق للمسلمين غير إمارة واحدة هي دولة بني الأحمر.

يعود بنو الأحمر إلى أصول عربية، "فهم يعرفون ببني النصير، وينتسبون إلى سعد ابن عبادة سيد الخزرج، قامت دولتهم في غرناطة واستطاعت هذه الإمارة أن تقف في وجه الإفرنجة زهاء قرنيين ونصف"[1] وذلك لعاملين:

- **أولهما**: أنها كانت تستنجد بسلاطين المغرب أيام المحنة، فتعبر إليها الجيوش لرفع الأعداء عن أرضها.
- **الثاني**: انشغال الملوك الإسبان عنها بالاقتتال فيما بينهم.

غرناطة أو إغرناطة اسم قديم يرجع إلى عهد الرومان والقوط، "وقد اختلفت آراء الباحثين في أصل هذه التّسمية، فيرى البعض أنّه مشتق من الكلمة الرومانية **granata** أي الرمانة، وأنها سميت كذلك لجمالها ولكثرة حدائق الرمان التي تحيط بها، ويرى البعض الآخر أن التسمية ترجع إلى أصل قوطي، أو أنها ترجع إلى أصل بربري مشتق من اسم إحدى القبائل".[2]

عرفت غرناطة في عهد بني الأحمر أزهى عصورها، إذ شيّد بها قصر الحمراء الذي لا تزال معالمه حتى اليوم، كما شهدت نهضة أدبية وعلمية فقد حفلت بعدد كبير من الشعراء والأدباء من أبرزهم: **لسان الدين ابن الخطيب، وابن زمرك، وابن خاتمة الأنصاري، والملك يوسف الثالث، وابن فركون...وغيرهم.**

ومن أهم عوامل ازدهار الحركة الشعرية في عصر بني الأحمر، تشجيع الأمراء والملوك الشعراء، حيث تبوأ الشعراء مكانة هامّة في مجتمعاتهم بالإضافة إلى الهجرة من المدن الأندلسية إلى غرناطة والسّعي من أجل

[1] ينظر الأدب الأندلسي، سامي يوسف أبو زيد، ص31.

[2] نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، محمد عبد الله عنان، مطبعة الجنة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط3، 1966، ص22.

تثبيت الشّخصية العربية والحفاظ عليها، تأثّر أهل غرناطة بالمشرق العربي، ضياع المدن الأندلسية واستنهاض الهمم، الطبيعة الجغرافية يقول **يوسف إبراهيم جرار**: "**تأثّرت الحركة الشّعرية في عصر بني الأحمر بمجموعة من العوامل التي ساعدت على تقدّمها وازدهارها، ونحن بدورنا لا نستطيع أن نغلب عاملاً على آخر، فجميعها تآلفت في رفد النّتاج الشعري وجعله يأخذ مكانة بين غيره من الآداب**".[1]

إلا أنّها على الصّعيد السّياسي شهدت غرناطة أسوأ عصر منيت به الأندلس من حروب وفتن واضطرابات وصراع على السّلطة، بلغ ذروته بين السلطان أبي الحسن علي بن سعد، وابنه أبي عبد الله محمد من ناحية، ثم بين الأخير وعمّه أبي عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل من ناحية أخرى.

لم يختلف شعراء غرناطة عمّن سبقوهم من شعراء الأندلس، فجاءت أشعارهم في الوصف والمدح والهجاء وغيرها من الأغراض الأخرى، لكن في مقابل هذا نجد أغراضاً قد ازدهرت دون غيرها مثل: **أشعار الاستصراخ ورثاء المدن والحنين والغربة**.

[1] الحركة الشعرية في الأندلس (عصر بني الأحمر)، اطروحة لنيل الماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2007، ص12.

المبحث الأول: دلالة المدن:

يظلّ المكان عبر مختلف العصور والأزمنة له ملامحه ومدلولاته الخاصّة به، تجسّدت أكثر في شعر الأندلسيين، حيث كان المكان بها شاهداً على قيام حضارة عظيمة، كما كان شاهداً أيضا على زوالها ونهاية حكمها وهجرة أهلها، فكان لتساقط المدن الأندلسية الواحدة تلوى الأخرى سبباً في ترك الأندلسيين لوطنهم الذي ولدوا فيه ونشأوا في أرضه.

هذا ما حرّك في أشجان الشعراء الخوف والقلق من فقدانه، فخلّف لديهم حالة شعورية كان لها أثر واضح في تشكيل رؤيتهم للأمكنة والتي تجلت من خلال حنينهم لوطنهم والوقوف على أطلاله، وإحساسهم بالغربة والشّكوى من لوعتها، ورثائهم لتلك المدن الضائعة.

لقد وقفنا سابقاً على تعريف الحنين وأوردنا نماذج عن حنين الشعراء لمدن مختلفة من الأندلس لكننا في هذا الفصل سنخصص الحديث عن الحنين في العصر الغرناطي وكيف صوّر الشعراء شوقهم وحنينهم لمدينة غرناطة.

من الشّعراء الذين ذاقوا مرارة التغريب **أبو الحسن سهل بن محمد بن مالك الغرناطي**، الذي يقول في قصيدة له يصوّر حالته في الغربة وتحمله الألم والعذاب والشوق بصبر وعناد:[1]

تَـــدَرَّعْتُ بِالصَّـــبْرِ الجَمِيـــلِ وأَجْلَبَـــتْ ⁂ صُرُوفُ اللَّيَالِي كَيْ يُمَـــزِقْ لِـــي دِرْعِـــي
فَمَـــا مَـــلأت قَلْبِـــي وَلا قَبَضَـــتْ يَـــدِي ⁂ وَلاَ نَحَتَـــتْ أَهْلِـــي وَلاَ هصـــرت فرعِـــي
فَإِن عَرَضَـــتْ لِـــي لاَ يَفُـــوهُ بِهَـــا فَمِـــي ⁂ وَإِن زَحَفَتْ لِـــي لاَ يَضِـــيقُ لَهَـــا ذَرْعِـــي

[1] ديوان ابن مالك، تحقيق: محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)، ج4، ص103.

فلقد عبّر ابن مالك في هذه الأبيات عن هموم البعد والنوى، فنلمس من خلالها حنينه وشوقه إلى وطنه، فبدت نبرته حزينة شاكية توحي بحبّه وحنينه إلى وطنه.

ونجد أيضا الشاعر الملك **'يوسف الثالث'*** الذي كان أشدّ بكاءً وألماً على فراق وطنه غرناطة حين أبعد عنها، فخلّف لنا شعراً كثيراً في الحنين إلى الوطن فمن ذلك ما قاله تشوّقاً إلى غرناطة وتلهفاً إلى العودة إليها وهو مقيم بجبل الفتح بالقرب منها يقول:[1]

أَضْحَى الفُؤَادُ بِسَيْفِ البَيْنِ مَجْرُوحا ⁂ ومَدْمَعُ العَيْنِ فَوْقَ الخَدِّ مَسْفُوحًا
لَمْ يَبْرَحِ الكلفُ المُضْنِي بِبُعْدِكُمُ ⁂ كَأَنَّهُ جَسَدُ قَد فَارَقَ الرُوحَا
سَقْيًا لِغَرْنَاطَةَ وَاللهِ مَا بَرِحَتْ ⁂ تُلْقِي مِن البُعْدِ فِي قَلْبِي تَبَارِيحًا

لقد جَرَحَ البِعَادُ قلب الملك "يوسف الثالث" وسفحت ذكريات غرناطة دموعه، وأشعل الاغتراب القاسي في الشوق والوجد حتى صار جسداً بلا روح.

وها هو أيضاً في نفس القصيدة يحن إلى مواطن معيّنة في غرناطة، ونبرة الحزن والأسى والحسرة تملأ نفسه وقلبه على هذه المواضع التي ابتعد عنها مرغما يقول:[2]

إِلَى تَاجِ السَبِيكَةِ فَالمُصَلَّى ⁂ تُغَادِيكَ الصَّبَابَةُ وَالهُيَامُ
إِلَى سَكَنِ الأُلي حُلُّوا بِنَجْدِ ⁂ سَقَاهُ –غَيرَ مُفْسِدِهِ– الغمَامُ
رُبُوعُ عَافِهَا قَلْبِي بِكُرْهِ ⁂ كَمَا عَافَت مَوَارِدهَا الحَمَامُ

وهذه الأبيات تعكس مدى حب وحنين 'يوسف الثالث' إلى وطنه غرناطة رغم وجوده داخل الأندلس في جبل الفتح وقريباً منها.

* هو يوسف بن يوسف الغني بالله (ت:820) ملك شاعر له ديوان.

[1] ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث، تحقيق عبد الله كنون، معهد مولاي الحسن، تطوان 1985، ص29.

[2] المصدر نفسه، ن.ص.

كما نجد أيضا الشاعر **'ابن فكرون'** الذي رافق الملك **'يوسف الثالث'** في خروجه من غرناطة، وتعرّضه لما تعرض له ملكه من بعد وحرمان عن وطنه ومسقط رأسه غرناطة، فيحنّ إلى بلده الصغير غرناطة فينظم قصيدة يصور فيها ذلك الحنين قائلاً:[1]

هَـــلْ بَعْـــدَ طُـــولِ تَغَرُبِـــي وَفُرَاقِـــي ⁜ أَرْجُـــو اللِقَـــاءَ وَلاَت حِـــينَ تَـــلاَقَ
لَمَـــا رَحَلْـــتُ عَـــنْ المَنَـــازِلِ لَـــمْ يَـــزَلْ ⁜ سُـــكْنَى الغَـــرَامِ بِقَلْبِـــي الخِفَـــاقِ
يَـــا حَـــادِيَ الأَظْعَـــانِ مَالَـــكَ وَالسُـــرَّى ⁜ اللهَ في الرِفْـــقِ الـــذي هُـــو بَـــاقِ
هـــي دارُ أحْبَـــابي ومَوْضِـــعُ صَـــبْوَتِي ⁜ ومَحـــلُّ جِيرَانِـــي ورَبْـــعُ رفـــاقي
جَـــارَ الزَّمَـــانُ بِبُعْـــدِهُمْ ولعَلَّـــه ⁜ يومًـــا يَجُـــودُ بعَـــادة الإشْـــفاقِ

فالشاعر هنا يشكو مرارة البعد وألم الفراق، ويتشوّف إلى الأرض ومن عليها من الأهل والأحبّة، كما يعلن من خلالها أن بلاد الله الواسعة لا يمكن أن تعوّضه عن وطنه.

ومن الرّاحلين أيضا عن أوطانهم نجد الشاعر **لسان الدين بن الخطيب** وإن كانت غربته عن وطنه لم تتجاوز الأندلس، فقد قضى غربته في جبل الفتح قريباً من غرناطة، إلا أنها كانت كفيلة بتحريك جذوة الشّوق والحنين في نفسه حيث تربطه بوطنه علاقة قوّية بدت واضحة من خلال شعره الذي يقول فيه:[2]

سَلُوا عَنْ فُـــؤَادِي بَعْـــدَكُمُ كَيْـــفَ حَالـــهُ ⁜ وَقَـــدْ قَوَّضَـــتْ عِنْـــدَ الصَـــبَاحِ رِحَالُـــهُ
وَلاَ تَحْسِبُوا أَنِـــي سَـــلَوْتُ علـــىَ النَـــوَى ⁜ فَسُـــلْوَات قَلْبِـــي فِـــي هَـــوَاكم مُحَالُـــهُ
وَمَا حَـــالُ مَـــنْ شَـــطَتْ بِغَـــرْبِ دِيَـــارَهُ ⁜ وَفِـــي الشَّـــرْقِ أهلـــوه، وثُـــمَ حَلاَلُـــهُ
عَسَـــى جَبَـــلُ الفـــتحِ الَـــذِي بِجَانِبِـــهِ ⁜ حَلَّلْـــتُ بِقُـــرْبِ الفَـــتْحِ يَصْـــدُقُ فَالُـــهُ
تُرَى هَلْ يَعُـــودُ الشَّـــمْلُ كَيْـــفَ عَهِدْتُـــهُ ⁜ وَيَبْلُـــغَ قَلبِـــي مَـــا اشْـــتَهَى ويَنَالُـــهُ
لَقَـــد هَـــاجني شَـــوْقُ إلَيْهَـــا مُبْـــرِحُ ⁜ إذا شمْـــتُ بَـــرْقَ الشـــرقِ شَـــبَّ دُبَالُـــهُ

[1] ديوان ابن فكرون، تحقيق، محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1987، ص252.

[2] هو أبو عبد الله بن عبد الله بن علي بن أحمد السلماني، عرف بابن الخطيب السلماني ولد سنة 713هـ بمدينة لوشة LOJA، من مؤلفاته: الإحاطة في أخبار غرناطة، والتاج المحلى، رقم الحلل في نظر الدول، ينظر ديوان لسان بن الخطيب، ت: محمد الشريفة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973، ط1، ص572.

فَكَمْ لِي علَى الــوادِي بِهــا مِــن عشــيَّةٍ ❊ يَقُــــلُ لَهَــــا ذِكْــــرُ الفــــتَى ومَقالُــــهُ
عَسَــى اللهُ يُــدْنِي سَــاعةَ الفَــرجِ الــتي ❊ بِهــا يَتَسَــرَى عــن فُــؤادِي خَبَالُــه

يتغنّى **'ابن الخطيب'** في قصيدته بجمال مدينته غرناطة وروعتها، فكيف لا يحنّ إليها إذا ابتعد عنها فها هو يعبّر عن شوقه لغرناطة عند غيابه عنها وكأنها صارت جزءاً من ذاته أو حاجة ماسّة من حاجات نفسه.

كما عبّر أيضا الشاعر **'ابن زمرك'*** عمّا عاناه من الشوق إلى غرناطة وغيابه عنها يقول:[1]

لَــــوْلاَ تَــــأَلُقُ بَــــارِقِ التِّــــذْكَارِ ❊ مَــا صَــابَ واكــفُ دَمْعِــي المِــدْرَارِ
أَمُــــذَكِرِي غَرْنَاطَــــةَ حَلَــــتْ بِهــــا ❊ أيْــــدي السَــــحاب أَزِرَّة النُــــوارِ
كَيْــفَ الــتَخَلُصُ للحَــدِيثِ وَدُونَهَــا ❊ عَــــرْض الفُــــلاةِ وطِــــافح زِحَــــارِ

فهذا الألم وتلك المعاناة التي عاناها **'ابن زمرك'** نتيجة بُعده عن غرناطة نابعة عن قلب محبّ لوطنه.

كما وقف الشاعر الغرناطي أيضاً على الأطلال في مقدمة قصائده، فعلى الرّغم من أنّه عاش متحضراً، لأنه انتهج منهج القدامى في ذلك فصوّر الدّيار والأحبّة والمنازل، إن مكان الطلل مكان مفتوح غير محدّد وغير مغلق (اللا مكان)، وبهذا المكان يمثّل دلالة الألفة والارتباط البدني والمشيمي برحم الأرض، فعلى الرّغم من أن دلالة الطلل المكانية تختلف دلالتها من المحدودية إلى المطلقة، المهمّ في ذلك احتوائها نفسيّة الشاعر والأمة في العودة إليها وبثّ مشاعر الحنين والشوق إليها، فكذلك الطلل هو موطن الصبا والشباب.

* ابن زمرك: هو محمد بن يوسف بن محمد أحمد محمد بن يوسف بن محمد القريحي، المعروف بابن زمرك (733-795هـ) شاعر لغوي.
[1] ينظرديوان ابن زمرك، تحقيق، محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997، ص50.

يقول الشاعر **'ابن خاتمة الأنصاري'*** في إحدى مقدماته الطللية:[1]

هَـــذِي الـطُّـــدُوجُ فَـــأَينَ عُفْـــرُ ظِبَائِهَـــا؟ ⁂ هَـــذي الـــبروج فَـــأَينَ زهـــر سَـــمَائِهَا؟
غَرَبَـــتْ أولَـــى وَتَغَرَّبَـــت هَـــاتِي فَـــلا ⁂ أثـــــر لمرآهـــــا ولا لروائهَـــــا
وَلَقَـــد وقفـــتْ عَلَـــى الـــدِيَارِ مُسَـــائِلاً ⁂ أَطْلاَلَهَـــا بِالعَهْـــدِ عـــن أَطْلاَئِهـــا
مُتَـــــرَدِدًا فِي جِسْـــــمِي فِي البِلَـــــى ⁂ لَـــولاَ تَبَـــايُنُ وَجْـــدِهِ وَشِـــفَائِهَا
دِمَنٌ مَحَـــتِ أَيْـــدِي الـــدُرُوس طُرُوسُـــهَا ⁂ لَـــم يَبْـــقَ منْهـــا غَيْـــرُ وَهْـــمِ بَقَائِهَـــا
نُـــؤْيِ تَـــرَاءَئ مِثْـــلَ عَطَفَـــة نُونِـــهِ ⁂ وأَثَـــافٍ الْتَاحَـــتْ كَعُجْمَـــةِ ثَائِهَـــا
يَـــا هَـــلْ تُـــبلّغُنِي الجِيَـــادُ مَنَـــازِلاً ⁂ قَلْبِـــي نَزِيـــلٌ فِـــي حِمَـــى نُزَلاَئِهَـــا

حيث نجده هنا وقف على الأطلال وقفة متأنّية تملّكها جوّ من الحزن والألم وانتابها فيض من التحسّر والنّدم على تلك المدن البالية التي محتها عوامل البلى، وإنّ المفردات التي استخدمها الشاعر كـ (الظباء، الديار، الأطلال، البلى، الجياد، دمن) وما نتج عنها من دلالات ومعانٍ هي مشرقيّة خالصة، صاغها الشاعر بأساليب إنشائية متنوّعة من استفهام إلى التماس إلى نداء إلى استغاثة، كما أنّ الشاعر هنا يجمع بين الثنائية المكانية التي شكّلت في نفسية: المكان الرّوحي (المشرق) لأنّه يمثل تراثه والمكان الجغرافي (غرناطة) لكونه يمثّل واقعه.

نجد أيضا المقدمة الطللية عند الشاعر **'ابن فكرون'** في قصيدة له استهلّها بذكر الركائب والوقوف عليها يقول فيها:[2]

قِـــفْ بِالرّكَائِـــب سَـــاعَة واســـتوقِف ⁂ تَحْظَّ الركابُ ضُـحى بأشـرف موقِـف
وارْبَـــعْ بِهَـــا دِمَنـــاً أَلِفَـــتْ بِهَـــا الهَـــوى ⁂ أكـــرِمْ بِهَـــا مـــن مَرْبَـــع أَو مَـــأْلِفِ

* ابن خاتمة الأنصاري: هو أبو جعفر أحمد بن علي بن خاتمة (700-770) متصوف، شاعر، أديب، له ديوان مطبوع.

[1] ديوان ابن خاتمة أحمد بن علي الأنصاري، تحقيق، محمد رضوان الداية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1972، ص62.

[2] ديوان ابن فكرون، محمد بن شريفة، ص129.

يأمرنا الشاعر هنا بالوقوف بالركائب ولو لساعة للحظي بشرف ذلك المكان وكرم أهله، ويظهر ذلك حين استعمل فعل الأمر "قف".

أمّا ذكر أسماء المنازل والديار نجد قصيدة لـــ **'ابن زمرك'** يقول فيها:[1]

يَـــا مَـــنْ يَحِـــنّ إلى نَجْـــدٍ وَنَادِيهَـــا ❊ غَرْنَاطَـــةَ قَـــدْ ثَـــوَتْ نَجْـــدُ بِوَادِيهَـــا
إنَّ الحِجَـــــازَ مَعَانِيـــــهِ بِأَنْـــــدَلس ❊ أَلْفَاظُهَـــا طَابَقَـــتْ مِنْهَـــا مَعَانِيهَـــا
فَتِلْـــكَ نَجْـــدُ سَـــقَاهَا كُـــلّ مُنْسَـــجِمْ ❊ مِـــــنَ الغَمَـــــامْ يُحْيِيهَـــــا
وَبَـــارِقُ وغَـــذيب كُـــلُّ مُبْتَسِـــمْ ❊ مِـــنَ الثُّغُـــورِ يُحَلّيهَـــا مُحَلّيهَـــا
وَإِنْ أَرَدَّتْ تَـــرَى وَادَ العَقِيـــقِ فَـــرِدْ ❊ دُمُـــوعَ عُشَـــاقِهَا حِمْـــراً مَجَارِيهَـــا
وللِسَـــبِيكَةِ تَـــاجُ فَـــوْقَ مَفْرَقِهَـــا ❊ تَـــوَدُّ دُرُّ الـــدَّرَارِي لَـــوْ تُحَلّيهَـــا

حيث وظّف الشّاعر الأماكن الآتية (نجد، الحجاز، بارق، عذيب، واد العقيق)، كما أنه اعتمد على رسم المتقابلات المكانية، فغرناطة تعدّ مصدر إلهام الشاعر وصف لنا أيضاً جمال وروعة متنزّه نجد وبارق وعذيب ووادي، والشبيكة التي يراها تاج فوق مدينة غرناطة.

الشاعر لا يتملّكه الشعور بالشوق والحنين إلى وطنه، إلا إذا كان مغترباً عن بلده والغربة لم تكن بسبب الحروب فقط، فهناك من ذهب في رحلة لطلب العلم، وهناك من ذهب للحجّ إلى الديار الحجازية المهم في ذلك كلّه أن الإحساس واحد وهو الوجد والاشتياق إلى المنازل المألوفة والبكاء على ما مضى من العمر بعيداً عن الأرض.

[1] ديوان ابن زمرك، محمد توفيق التيقر، ص501.

ومن الشعراء الذين ذاقوا مرارة ولوعة **الاغتراب محمد بن محمد سعيد بن جزي الكلبي*** بعد أن نفي من طرف السّلطان يوسف بن الأحمر فأخرج من غرناطة وقلبه يعتصّر ألماً على فراق وطنه يقول:[1]

جَـــرَّدْتَ ثَـــوْبَ العِـــزّ عَنّـــي طَائِعـــاً ⁂ أَتَـــرَاهُ يَعْطِفُـــهُ عَلَـــيّ خُضُـــوعِي
أَوْسَـــعْتَنِي بُعْـــداً بِفَضْـــلِ تَقَـــرُّبِي ⁂ وَجَزَيْتَنِـــي سُـــوءاً لِحُسْـــنِ صَـــنِيعِي
خُـــذ مِـــن حَـــدِيثِ تَـــوَلّعِي وَصَـــبَابَتِي ⁂ خَبَـــراً صَـــحِيحاً لَـــيْسَ بِالمَوْضُـــوعِ
كَـــمْ مِـــن لَيَـــالٍ فِي هَـــوَاكَ قَطَعْتُهَـــا ⁂ قَلْبِـــي لِـــذِكْرَاهُنّ فِي التَّقْطِيـــعِ
لاَ وَالـــذِي طَبَـــعَ الكِـــرَامَ عَلـــى الهَـــوَى ⁂ وَيَعِـــزُّ سِـــلْوَانَ الهَـــوَى المَطْبُـــوعِ
مَـــا غَيَّرَتْنِـــي الحَادِثَـــاتُ وَلَم أَكُـــن ⁂ بِمُـــذِيعِ ســـرٍ للعُهُـــودِ مُضِـــيعِ
لاَ خَيْـــرَ فِي الـــدُّنْيَا وفِي لَـــذَاتِهَا ⁂ إِن كَـــانَ جَمْعِـــي مِنْـــكَ غَيْـــرُ جَمِيـــعِ

فرغم ما تعرّض له فإنّه سوف يبقى وفيًّا لسلطانه ووطنه، محبًّا له رغم بعده عنه، لن تتغيّر مشاعره اتجاه الوطن أو الحاكم بل سيبقى وفيًّا مخلصاً، محافظاً على العهد لن تغيّره الأيّام والبعد عن الوطن.

أمّا عن الشعراء الذين ارتحلوا إلى المشرق لطلب العلم وأحسّوا بالغربة، نجد **أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد** الذي حلّ بمصر تاركاً وطنه من أجل طلب العلم مصوّراً لنا حالة الغريب قائلاً:[2]

ويْـــحَ الغَرِيـــبِ توحشّـــت أَلحاظُـــه ⁂ فِي عَـــالِمٍ ليسُـــوا لـــهُ بِشَـــبِيه
إن عَـــادَ لِي وَطَـــنِي اعترفْـــتُ بِحَقّـــهِ ⁂ إنَّ التَغَـــرُّبَ ضَـــاعَ عُمـــرِي فِيـــه

يقرّ الشاعر بأنّ ليس له شبيه في العالم ولا يقدّر ذلك إلا من كان غريباً وضاع عمره في بلاد الغربة، ويتمنى لو يعود إلى أرضه ويعترف بجميله.

*هو محمد بن سعيد بن جزي الكلبي من أهل غرناطة يعرف بابن جزي، ولد 715هـ كان قاضيا وخطيبا وشاعرا.

[1] نثير فوائد الجمان في نظم فحول الزمان، محمد رضوان الداية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، 1967، ص296.

[2] نفح الطيب، المقري، ج2، 262.

كما صوّر لنا الشعراء مواقف الوداع التي تعدّ من المواقف الإنسانية السّامية، فلم يكن الوداع أمراً هيّناً على نفوس المرتحلين بل كان غاية في الألم والعذاب، ومن الشعراء الغرناطيين الذين فارقوا أوطانهم وصوّروا ساعة الوداع التي اقتلعتهم من تراب وطنهم لتحطّ بهم في بلاد غريبة **أبو جعفر الإلبيري*** حيث لم تكن ساعة الوداع هيّنة عليه بل كانت قاسية مؤلمة يقول فيها:[1]

وَلَمّـــا وَقَفْنَـــا لِلـــوَدَاعِ وقَـــد بَـــدَتْ ⁂ قِبَابٌ بنَجْدٍ قَـــدْ عَلَـــتْ ذلـــك الـــوَادِي
نَظَـــرتُ فَألفيـــتُ السّـــبيكَةَ فِضّـــةً ⁂ لِحُسْنِ بَيَـــاضِ الزَّهْـــرِ في ذَلِـــكَ النَـــادِي
فَلَمَـــا كَسَـــتْهَا عَـــادَ لُجَيْنَهَـــا ⁂ لَهَا ذَهَبـــاً فاعْجَـــب لإِكْسِـــيرِهَا البَـــادِي

يصوّر الشاعر ساعة رحيله عن وطنه غرناطة، حيث نظر إلى سبيكتها الفضيّة بأزهارها وحين تطلّ عليها الشّمس تعكس لوناً ذهبياً في غاية الجمال كيف لا وهي وطنه ولابدّ أن يرسمه في أبهى الصور، فكيف إذاً كانت غرناطة التي تتميّز بجمالها وروعتها، ويقول أيضاً:[2]

بِجَـــوْرِ الـــوَدَاعِ لَنَـــا مَوْقِـــفْ ⁂ أَذَاب الفُـــؤادَ لأجْـــلِ الـــوَدَاع
فَمَـــا أَنَـــا أَنْسَـــى غَـــذَاةَ النَّـــوَى ⁂ وَحَـــادِي الرَكَائِـــبِ لِلبَـــيْنِ دَاعِـــي

يذكر الإلبيري هذا المكان بعينه "جور الوداع" وهو اسم لمكان خارج غرناطة اعتاد النّاس الخروج إليه لوداع ذويهم، فالشاعر يذكر المكان حيث ذاب قلبه ألماً لوقع الوداع، ولا يمكن أن ينسى يوم الفراق، واللحظة التي دعا حادي الركب الإبل للمسير فكان الفراق.

من أهمّ الخصائص الفنيّة لشعر الغربة والحنين في عصر سيادة غرناطة سهولة الألفاظ فلقد مال الشعراء الغرناطيين إلى تخيير الألفاظ السهلة، وقد ظهرت هذه السّمة في الأساليب الجزلة الرقيقة مع تفاوت يسير بين طبقاتها، تقول **مها روحي إبراهيم خليل: "إذا نظرنا إلى أسلوب أشعار الحنين في عصر بني الأحمر فإنّنا**

*هو أبو القاسم خلف بن فرج الإلبيري، المعرف بالسّميسر، شاعر وأديب.

[1] نفح الطيب، المقري، ج2، ص678.

[2] المصدر نفسه، ج7، ص374.

نجد أنّه جاء متفقاً مع ما ذهب إليه النّقاد، وقد اتّسمت أشعارهم بالرقة واللين والسهولة والفصاحة والبعد عن الابتدال".[1]

كما حرص أيضا الشعراء الغرناطيين على اختيار اللفظ العذب الرقيق والابتعاد عن الألفاظ الغريبة، فوجدت الألفاظ تنساب رقة وعذوبة وتتقطّر منها مشاعر الشّوق والحزن والأسى، تميّزها صدق العاطفة لأنها نابعة عن قلب محب لوطنه.

- **رثاء غرناطة:**

عرف الرثاء قديما على أنّه: "**ذكر مناقب الميّت وإظهار التفجّع لفقده**"[2] فهو من أصدق العواطف الإنسانية، انتقل هذا الفن إلى بلاد الأندلس فاحتذى فيه شعراؤها نظراءهم المشارقة، وأضافوا فيه ما تميّزوا به وتفرّدوا، و لم يقفوا عند حد رثاءهم موتاهم من الملوك والرؤساء والأقارب والأحباب، إنما "**وسعوا مفهوم الرثاء ليشمل بالإضافة إلى الهلكى من البشر ما يفقد من مدن وحصون وقلاع وما يزول من الدول**"[3]

حيث استطاع الأندلسيون أن يجعلوه اتجاهاً قائماً بنفسه، وباباً من أبواب الشعر أبدعوا فيه القول وأجادوا فيه الصّياغة، ظهر في عصر بني الأحمر بطابع جديد يختلف عن الرثاء التّقليدي من حيث المضمون هو رثاء المدن الضائعة، فالحبيب المفقود والضّائع هو الوطن وقد اتخذ هذا اللون الشعري اتجاهان: اتجاه اتخذ الطّابع السّلبي الذي يعكس الرّوح الانهزامية بميله إلى البكاء والحسرة بشكل ملحوظ، واتّجاه آخر اتخذ الّطابع النضالي الذي يحثّ الشعب على التّضحية ومقاومة العدوان وبذل الغالي والرّخيص في سبيل الوطن.

يمثّل الطّابع النّضالي أو ما يعرف **بشعر الاستصراخ** أهم ما يميّز الشعر الأندلسي أيام النّكبة، ويعرّف بأنّه "الشعر الذي يقوم على استنهاض همم الملوك، وشحذ عزائم المسلمين للقيام بما يقتضيه الجهاد ضد

---

[1] الغربة والحنين في الشعر الغرناطي، أطروحة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية، جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، 2007 ص139.

[2] رثاء المدن بين سقوط الأندلس وأحداث الثلاثاء الأسود، جغام ليلى، قسم الأدب العربي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ص2.

[3] شعر الاستصراخ في الأندلس، عزوز زرقان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008، ص129.

النّصارى من نصرة ونجدة، فهو شعر يتناول هموم الأمة وسيرها نحو الانحدار، إنه شعر ملتزم آليا بقضايا المجتمع، يحدّد الأسباب ويستثير الهمم".[1]

يكون الهدف من قصيدة الاستصراخ هو الاستثارة والتأثير حتى تقع الاستجابة فسقوط غرناطة يعد نقطة تحول كبرى على طريق المأساة، ومعلماً ومحطّة من أهم المحطات الدّامية الدّاعية للاستصراخ، وتعتبر صرخة أبي **البقاء الرندي*** من أعلى الأصوات وأشجاها في باب الاستصراخ، إذ قال قصيدته بمناسبة المعاهدة التي أبرمها **محمد بن الأحمر** مع ألفونسو العاشر القشتالي سنة 665هـ، والتي تنازل بموجبها عن مجموعة من الحصون الهامة للقشتاليين دون قتال، شريطة أن يتخلى القشتاليون عن مساندة الثائرين على ابن الأحمر، فاستولى اليأس على الشاعر أمام التمزق الداخلي، والاستسلام لإرادة العداء فيعمد إلى التأمل الهادئ لأحداث التاريخ طلباً للتأسّي، يقول في مستهلها :[2]

لِكُـــلّ شَـــيء إذا مَـــا تَـــمَّ نُقْصَـــانُ ❊ فَـــلاَ يُغَـــرُّ بِطيـــبِ العَـــيْشِ إنسَـــانُ
هِـــي الأمُـــور كَمَـــا شَـــاهَدْتَهَا دُول ❊ مَـــن سَـــرَّهُ زَمَـــنٌ سَـــاءَتْهُ أَزمَـــانُ

وبعد أن يضرب أمثلة لما جرّه الزمن على الأقدمين من ويلات وبلايا، ينتقل إلى الرثاء ليعدّد مجموعة المدن الهامة التي فقدها المسلمون، والتي كانت حصوناً وأركاناً منيعةً ولكن خرج منها الإسلام باكياً، فالذي حلّ بالأندلس حسب الرندي هو أكبر من كل الكوارث التي عرفها الزمن، فهي أكبر من أن تنسى، وعندها يتّجه نحو المغاربة مستصرخاً فيقول:[3]

تِلْـــكَ المُصِـــيبَةُ أَنْسَـــتْ مَـــا تَقَـــدَمَهَا ❊ وَمَـــا لَهَـــا مَـــعَ طُـــولِ الـــدَهرِ نِسْـــيَانُ
أَعِنْـــدَكُم نَبَـــأُ مِـــن أَهْـــلِ أَنـــدَلُس ❊ فَقَـــد سَـــرَى بِحَـــدِيثِ القَـــوْمِ رُكْبَـــانُ

[1] المرجع السابق، ص8.

*هو أبو البقاء صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف الرندي الأندلسي (601هـ-684هـ)، شاعراً وفقيهاً.

[2] نفح الطيب، المقري، ج4، ص487.

[3] المصدر نفسه، ص488.

كَم يَسْــتَغِيثُ بِنَــا الْمُسْتَضْــعَفُونَ وَهُــمْ ❊ قَتْلَــى وَأَسْــرَى فَمَــا يَهْتَــزُّ إِنْسَــانُ
إِلاّ نُفُــوسٌ أَبِيَّــاتٌ لَهَــا هِمَــم ❊ أَمَــا عَلَــى الخَيْــرِ أَنْصَــارُ وَأَعْــوَانُ
بِــالأَمْسِ كَــانُوا مُلُوكًــا فِي مَنَــازِلِهِم ❊ واليَــوْمَ هُــم فِي بِــلاَدِ الكُفْــرِ عُبْــدَانُ

فالشاعر يضع أمام أعين المغاربة صورة مجسّمة لكارثة الأندلس، مليماً المغاربة على غفلتهم عمّا فيها من مآس، وصمتهم أمام نداءات الأندلسيين واستصراخهم.

ونجد أيضا الشاعر الدقون الذي يتحدث عن غرناطة واحتلالها، وقد فقدت كل نصير، وأضحت عرضة للتجويع، حتى إذا انقضّ عليها العدو انقضاض المتوحشين فتجد لونها قد تغيّر بعد تلألؤ وضياء، متسائلاً بصوت يملأه اليأس وفقدان الأمل، هل يمكن لغرناطة أن تستعيد أيامها الزاهرة، قال:[1]

واحَتَــلّ غَرنَاطَــةَ الغَــرّاءَ قَــد عَــدِمَتْ ❊ حَــــبَّ الحَصِــــيدِ وَنَصْــــرَ اللهِ وَالآلِ
كَأَنَّها الشَّــمْسُ فِي أُفُــقِ العُلَــى كُسِــفَتْ ❊ فَهَــل عَلَــى طَلَــلٍ تَرمِــي بِأَبْطَــالِ
وَهَــل تَعُــودُ لَيَــالٍ قَــد سَــلَفْنَ بِهَــا ❊ وَنَحْــنُ لاَ نَشْــتَكِي تَنكِيــدَ ظُــلاّلِ
وَهَل يَعُــودُ لَهَــا الــدِينُ الــذِي أَنِسَــتْ ❊ بِــهِ، وَقَــدْ أَيِسَــتْ مِــن فَــتْحِ أَبْــدَالِ

فالشاعر يصف حال غرناطة كيف أصبحت بعد أن كانت جنّة لا مثيل لها، ويصف الهجمة الشّرسة للعدوّ، وكيف تقلّص الإسلام ليحلّ محله الشرك والكفر.

[1] أزهار الرياض، مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1929، ج1، ص106.

كما نجد أيضا **لسان الدين ابن الخطيب** قد خلّف لنا زاداً من الاستصراخ شعراً ونثراً، فقد أورد له المقرّي اثنتي عشرة رسالة في الاستنفار والحثّ على الجهاد،[1] لكن الذي يهمّنا نحن في دراستنا هو الشّعر وليس النّثر، ونورد له في ذلك قصيدة يقول فيها:[2]

أَإِخْوَانَنَا لاَ تَنْسَوْا الفَضْلَ والعَطْفَا ⁂ فَقَد كَادَ نُورُ اللهِ بِالكُفْرَانِ يُطْفَا
وإِذَا بَلَغَ المَاءُ الزُّبَى فَتَدَارَكُوا ⁂ فَقَد بَسَطَ الدّينُ الحَنِيفُ لَكُم كَفَّا

التي يستعمل فيها الاستعطاف والاستمالة لقلوب السّامعين بالتودّد والتحبّب بقوله: "أإخواننا" وهي الرّابطة التي تجمعهم بهم، بالإضافة إلى التركيز على لبّ القضية وهو "الإسلام" بقوله: "فقد كاد نور الله..."، الذي هو على شفا الزوال والاضمحلال أمام جيوش الكفر.

ثم يعدّد الشاعر ضحايا هذا العدوان الذي لم يسلم منه الأحياء ولا الجماد ولا المساجد فيقول:[3]

فَمِن مِعْقَلٍ حَلَّ العَدُوُّ عِقَالَهُ ⁂ ومنْ مَسْجِدٍ صَارَ الضَّلاَلُ بِهِ وَقْفَاً
وَمِن غَادَةٍ جَلَتْهَا يَدُ الجَلاَ ⁂ ولم تَدْرِ إلاّ دَايَةً قَطُّ أو سَجْفَاً
ومِن صِبْيَةٍ حُمْرِ الحَوَاصِلِ أصْبَحَتْ ⁂ تُقَلِّبُ ذُعْراً بَيْنَ أَعْدَائِهَا الطَّرَفَا
ومِن نِسْوَةٍ أَضْحَتْ أَيَامَى حَوَاسِراً ⁂ تُعَايِنُ في أَعوانِهَا الوَهْنَ والضُّعْفَا

ويبرز ما بلغته الأوضاع في الأندلس من فداحة وخطب وتدهور، ساعياً إلى استثارة الهمم وإيقاظ العزائم لنصرة الدين والبلاد وأهلها.

[1] ينظر شعر الاستصراخ في الأندلس، عزوز زرقان، ص61.
[2] ديوان ابن الخطيب، ص628.
[3] المصدر نفسه، ص629.

كما ساهم **'يوسف الثالث'** مالك غرناطة في شعر الاستصراخ، فيستغيث ببني مرين وبني حسين بقصيدة يقول فيها:[1]

أَ بَـــني مَـــرِينٍ والحِمَايَـــةُ شَـــأْنُكُم ❊ وَبِكَفّكُـــم سَـــيْفُ الجِهَـــادِ يُجَـــرّدُ
أَوْطَـــانُكُم إِخْـــوَانُكُم وبِلاَدُكُـــم ❊ عُـــودُوا وَعَهْـــدَكُمْ القَـــدِيم فَجَـــدِدُوا
أَبَنِـــي حســـيْنٍ أَنْـــتُم العَـــرَب الأُوْلى ❊ كرُمَـــتْ أَوَائِلُكُـــم وَطَـــابَ المَحْتَـــدُ
جِـــدُّوا فإنَـــا نَـــاظِرُون إِلَـــيكُم ❊ والله يَعلَـــمُ والمَلاَئِـــكُ تَشْـــهَدُ
أنّ النَّصَـــارَى قَـــد تَجَمّـــع شَـــملهَا ❊ فَعَسَـــى بِبَـــأْسِ سُـــيُوفِكُم قَـــد تَتَبَـــدَّدُ

فالشاعر يخاطبهم وكأن المسلوبة أرضهم، والوطن الجريح وطنهم، والبلاد المهدّدة بلدهم، محاولاً في ذلك تذكيرهم بما يمليه واجب الأخوة في الدّين وبما تمليه النّخوة والإباء، وداعياً إيّاهم إلى العودة للعهد القديم كي يجدّدوه، ويبنوا على منوال ما فعل أجدادهم وأسلافهم الأُوَلُ، آملا في الوقت نفسه أن تبدّد سيوف المنقذين المغاربة جموع النّصارى التي التأم شملها وتجمّع.

إنّ الصّلة بين الرثاء والاستصراخ وطيدة، إذ لا يعقل أن تستصرخ دون أن تقدم أسباب لذلك الاستصراخ، فذكر الانهيار ودمار القلاع والحصون وسقوط المدن سبباً قوياً للاستصراخ والإغاثة.

برع الشعراء الغرناطيين في نظم شعر الحنين والغربة لأنهم ذاقوا مرارة البعد والارتحال عن مدنهم فوظّفوا المكان توظيفاً نفسياً فنياً، كما تميّزوا أيضاً عن غيرهم في شعر الرثاء والاستصراخ وتنامي الدعوات المتلاحقة من أجل استرداد ما ضاع، لأنه لا مكان في الحياة بالنسبة للإنسان أبهى وأجمل من المكان الذي ولد وترعرع فيه، وتفيّأ ظلاله وارتوى من فرات مائه، فالمكان هو الذي تذكر لمراتع الصّبا وضحكات الطفولة البريئة، هو جزء من كيان الإنسان فمهما ابتعد عنه فلابدّ أن تبقى أطلال بلاده في ثنايا مخيّلته.

[1] ديوان يوسف الثالث، ص80.

فقد كان لتساقط المدن دلالة واحدة هو الإحساس والخوف من الهزيمة والقلق من فقدان الوطن، خاصّة أنّه أصبح مصير الأندلس في كفّة النّصارى أكثر من كفّة فاتحيها لذلك عمل الشعراء على شحذ همم الملوك، وعزائم المسلمين، ولكن في الوقت نفسه رسموا لنا المدن في أجمل وأبهى الصور.

المبحث الثاني: دلالة الطبيعة

لما كان أديب أيّ أمة هو ابن بيئتها، يتأثّر بها ويؤثّر فيها يستمد عناصر نشأته ووجوده وكلّ تطوّراته من طبيعة أرضها وأبعاد ثقافتها المتأصّلة في أمتها وأحداث تاريخها، هكذا كان الّشأن بالنّسبة للشاعر الأندلسي عامّة والغرناطي خاصّة.

لقد منح الله سبحانه وتعالى مدينة غرناطة طبيعة خلّابة، وقف الشعراء عندها وقفة تأمليّة، فأثار سحر جمالها مشاعرهم وهزّ عواطفهم فتحوّلت تلك الطبيعة في ذهن الشاعر عالماً إنسانياً سواء تلك الطبيعة الحيّة والصّامتة أو تلك الطبيعة الصناعية التي تدور حول مظاهر الحضارة والعمران، يقول ابن بطّوطة في وصف غرناطة: "**غرناطة هي قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها، وخارجها لا نظير له في الدنيا، وهو مسيرة أربعين ميلا يخترقه نهر شنتيل المشهور، وسواه من الأنهار الكثيرة والبساتين والجنّات والرياضات والقصور والكروم محدّقة بها من كلّ جهة، ومن عجيب مواضعها عين الدمع، وهو جبل فيه الرياضات والبساتين لا مثل له بسواها**"،[1] ميّز الله غرناطة بنهر شنيل، كما يخترقها أيضا نهر حدره، ويطلّ عليها من الشرق والغرب جبل شلير الذي تكسوه الثلوج صيفاً وشتاءً، يعرف الآن في إسبانيا بجبل "سيرانيفا ذا" أي الجبل المكسو بالثلج، ومن أعمال غرناطة وادي آش، ويقال: وادي الآشات ،ومتنزه "نجد" وهو من أجمل متنزهات غرناطة.

كما عُرفت غرناطة أيضاً بروعة قصورها فنجد: **قصر الحمراء، قصر جنة العريف، قصر شنيل،** بالإضافة إلى سحر جمالها، يقول **محمد كمال سبانة** واصفاً روعة معالم غرناطة:" **إنّ الزائر اليوم لمدينة غرناطة ليأخذه العجب، وتستولي عليه الدّهشة إذ يرى ما قام به سكّانها يومئذٍ في مجال المعمار الهندسي خاصة، ولاسيما أجنحة قصر الحمراء التي أضافها ملوك بني نصر على مرّ عهودهم، كباب شريعة وبرج قمارش، وبهو الشّفراء، والحمامات السلطانية وغيرها، ممّا لا يزال – حتى يومنا هذا– شاهداً على الرّوح السّامية، المنطلقة في آفاق الجمال لما حوته تلك الآثار من زخارف، واشتملت عليه من نقوش، في**

[1] رحلة ابن بطوطة، ابن بطوطة، تحقيق، علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج2، 1985، ص768.

سحر أخّاذ، وجمال فتان"[1]، تجلّت دلالته في وقوف الشاعر عند كل زاوية من تلك الجبال والأنهار والرياض والقصور.

1- الأودية والرياض:

لقد شغف الغرناطيون بوصف الأودية والرياض، ومن الشعراء الذين وقفوا عند سحرها **لسان الدين بن الخطيب** الذي يقول في قصيدة له يصف فيها رياض غرناطة:[2]

بَلَـــدٌ تَحُـــفُ بِـــهِ الرِيَـــاضُ كَأَنَّـــهُ ⁂ وَجْـــهٌ جَمِيـــلٌ وَالرِيَـــاضُ عِـــذَارُهُ
وَكَأَنَمَـــا وَادِيـــهِ مِعْصَـــمُ غَـــادَةٍ ⁂ وَمِـــنَ الجُسُـــورِ المُحْكَمَـــاتِ سِـــوَارُهُ

يرسم صورة لهذا الرياض الذي يحيط بمدينة غرناطة، وكأنّه الوجه الجميل والرياض تحيط به كما تحيط اللّحية السوداء الوجه الأبيض مما يظهر جمال الوجه ويزيده بهاء، ويمعن "ابن الخطيب" في الوصف فيشبّه الوادي بمعصم الفتاة الجميلة وأنّ الجسور حوله تشبه الأساور والحليّ حول المعصم.

ونجد **أبو الحسن بن نزار** يصف وادي الآشات قائلا:[3]

وَادِي الأَشَـــاتِ يَهِـــيجُ وَجْـــدِي كُلَّمَـــا ⁂ أذكَـــرتُ مَـــا قَضَّـــتْ بِـــكَ النَعْمَـــاءُ
لِلـــهِ ظِلُّـــكَ وَالهَجِـــيرُ مُسَـــلَّطُ ⁂ قَـــدْ بَـــرَّدَت لفَحاتِـــهِ الأنـــدَاءُ
وَالشَّـــمْسُ تَرْغَـــبُ أَنْ تَفُـــوزَ بِلَحْظَـــةٍ ⁂ مِنْـــهُ فَتَطْـــرَفُ طَرْفَهَـــا الأَفْيَـــاءُ
وَالنَّهْـــرُ يَبْسِـــمُ بِالحَبَـــابِ كَأَنَـــهُ ⁂ سِـــلْخُ نَضَـــتْهُ حَيَّـــةٌ رَقْشَـــاءُ
فَلِـــذَاكَ تَحْـــذِرُهُ الغُصُـــونَ فَمَيْلُهَـــا ⁂ أبَـــدًا عَلَـــى جَنَبَاتِـــهِ إِيمَـــاءُ

[1] الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ت: محمد عبد الله عنان، دار المعارف، مصر، د.ت، ج1، ص121.
[2] لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، محمد عبد الله عنان، مكتبة الغانجي، القاهرة، ط1، 1968، ص311.
[3] نفح الطيب، المقري، ج1، ص149.

يصف لنا الشاعر شوقه وحنينه لنهر الأشات كلّما تذكّر خيراته ونعمه ويصف أيضاً ظلّه ونسماته الباردة، وشبّه الأشجار والخيرات الموجودة على أطراف النهر كأنه بقايا جلد حيّة سلخت جلدها.

يقول **أبو الحجاج يوسف بن سعيد بن حسان:**[1]

سَقَى اللَــه مِــن غَرْناطَــة كُــلَ مَنْهَــلٍ ⁂ بِمَنــــهَلِ ســــحبٍ مَــــاؤُهُنَ هريــــق
ديــــارٌ يَــــدورُ الحُسْــــنَ بَــــيْنَ خِيامِهَــــا ⁂ وأرضٌ لَهَــــا قلــــبُ الشَــــجى مشــــوقُ
تَأمَّــــلْ إذَا أملــــتَ حــــوز مُؤَمِّــــل ⁂ وَمُــــدَّ مَــــنِ الخَمــــرَاَ عَليــــك شَــــقِيقُ
ومَهْمَــا بَكَــى جَفْــن الغَمَــامِ تَبَسَــمَتِ ⁂ ثغُــــورُ أقَــــاحٍ للريــــاضِ أنيــــقُ

يصف لنا الشاعر سحب غرناطة المطيرة كناية عن كثرة رياضها وجنّاتها، ونزول المطر سريعا من السّحاب إلى أرض غرناطة التي يشتاق السّير على تربتها، وإلى الخيام وحسن عمارتها وبنائها ويمثّل استقبال الزّهور والأقحوان لماء المزن بابتسامة المشتاق حين يرى دموع حبيبته فرحاً للّقاء.

ويقول أيضا:2

كَأَنَمَــــا النَهْــــرُ صَــــفْحَة كُتِبَــــتْ ⁂ أَسْــــطُرهاَ وَالنَسِــــيمُ مَنْشَــــؤُهَا
لَمــــا أبَانَــــت عَــــنْ حُسْــــن مَنْظَــــرِهِ ⁂ مَالَــــتْ عَلَيْــــه الغُصُــــون تَقْرَؤُهَــــا

يصوّر الحجاج انحناءة الأغصان على ضفاف الأنهار وكأن صفحة النهر هي صفحة كتاب رسمت حروفه هبات النسيم، فمن حسن الحظ ورونقه تميل إليه الأغصان والأفنان قارئة ما كتب.

[1] الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، ج1، ص117.
[2] شعر أبي الحجاج يوسف الثالث، تحقيق: شريف عبد الحليم محمد عويضة ص13.

كما حظيت غرناطة بنخبة من الشاعرات، ومن بينهم **حمدونة بنت زياد** المؤدّب لقّبت بصنوبرية الأندلس خرجت ذات يوم إلى واد مع صاحباتها، فرسمت له لوحة فنية جمعت فيها جمال الطبيعة مع جمال الأنوثة تقول فيها:[1]

أبَـــاحَ الـــدَمْعٌ أسْـــرَارِي بِـــوَادِي ✻ لَـــهُ فِـــي الحُسْـــنِ آثـــارُ بِـــوَادِي
فَمِـــنْ نَهْـــرٍ يَطُـــوفُ بِكُـــلِ رَوْضِ ✻ وَمِـــنْ روضٍ يَـــرِفُ بِكُـــلِ وَادِي
ومـــن بـــين الظبـــاء مهـــاة أنـــس ✻ ســـبت لُبّـــي وقـــد ملكـــت فـــؤادي
لَهَـــا لَحـــظٌ تُرقِـــدُهُ لأَمـــرْ ✻ وذاكَ الأمْـــرُ يَمْنَعُنـــي رُقَـــادِي
إذَا سَـــدَلَتْ ذوَائِبَهـــا عَلَيْهَـــا ✻ رأيـــتُ البَـــدْرَ فِـــي أفُـــقِ السَّـــوَادِي
كَـــأنَ الصُـــبْحَ مَـــاتَ لَـــهُ شَـــقِيقُ ✻ فَمِـــن حُـــزْنٍ تَسَـــرْبَلْ بِالحِـــدَادِ

إذا تأمّلنا هذه الأبيات وجدنا الشّعور العميق بالعطف والحنان هو أبرز ما يميّز 'حمدونة'، فكلّما وقفت على حسن وجمال هذا الوادي تدفّق الدمع من مقلتاها، فكلّما وُجد نهر وُجد روض ملازم له، فتقف وقفة تأمّلية تصف لنا جمال هذا الواد وجمال البدر السّاطع في السماء السوداء.

وتقول أيضا:[2]

وَقَانَـــا لَفْحَـــةَ الرَّمْضَـــاءِ وَادٍ ✻ سَـــقَاهُ مُضَـــاعَفُ الغَيْـــثِ العَمِـــيمُ
حَلَلْنَـــا دوحَـــهُ فَحَنَـــا عَلَيْنَـــا ✻ حُنُـــوّ المُرضِـــعَاتِ علَـــى الفَطِـــيمِ
وأرشـــقْنَا علَـــى ظمَـــأٍ زُلَـــالاً ✻ أَلَـــذُّ مِـــنْ الـــمُدَامَةِ للنَـــدِيمِ
يَصُـــدُ الشَـــمْسَ أنّـــى واجَهَتْـــنَا ✻ فيحجُبُهـــا ويَـــأذَنُ للنَسِـــيمِ
يـــروعُ حَصَـــاهُ حاليَـــةَ العَـــذَارَى ✻ فَـــتلمَسُ جَانِـــبَ العَقْـــدِ النَظِـــيمِ

[1] نفح الطيب، المقري، ج6، ص23.
[2] المصدر نفسه، ج6، ص24.

لقد شخّصت الشاعرة الوادي وجعلته أمّا حنونة وتخيّلت حصاه حبّات من اللؤلؤ تروّع العذارى الحاليات، فتلمس مكان العقود من لباتهن خشية أن تكون عقودهن قد انفرط نظمها واختلطت بحصى الوادي.

2- وصف الأزهار:

لقد حبا الله مملكة غرناطة بعدد من الأزهار التي كانت تفيض على بسائطها وتنشئ الحدائق والمتنزهات، فولع الشعراء بالأزهار وبشتى أنواعها وأشكالها وألوانها وجاءوا على أوصافها، يقول **سعد بن ماشي بن عودة: "لقد شغف الغرناطيون بالأزهار وذكروا أنواعها وألوانها...، هذا ممّا يدل على رقي حضارتهم وترفهم، ولم يقتصر ذلك الشّغف والولع على طبقة دون الأخرى، فالغني يستمتع بها في حدائقه، ويشتريها الفقير بالمال ليجمّل بها بيته"**[1]، فأصبحت الأزهار مثل الحاجات اليومية التي لا يمكن الاستغناء عنها وهذا ما أكدته قصيدة **القيسي** التي يقول فيها:[2]

وَدَقِيـــــــــــــــقُ أشْـــــــــــــــتَرِيهِ ⁂ مَـــــــعَ مِلْـــــــحٍ ثُـــــــمَ لَحْـــــــمِ
ثُـــــــمَ عَسَـــــــلٍ مَـــــــعَ سَـــــــمْنٍ ⁂ ثُـــــــمَ خَلْـــــــعٍ مَـــــــعَ شَـــــــحْمِ
ثُـــــــمَ صَـــــــابُونٍ لِغَسْـــــــلٍ ⁂ ثُـــــــمَ أَزْهَـــــــارٍ لِشَـــــــمِ

والتي يساوي فيها بين الأزهار واللحم والعسل والدقيق والصابون فإذا كان اللحم والعسل والدقيق لتقوية الجسم والنمو، والصابون لتطهير الجلد، فإن الأزهار تغذي الروح وتنعشه.

[1] التجليات الحضارية في الشعر الأندلسي (عصر بني الأحمر)، ص76.
[2] ديوان عبد الكريم القيسي، تحقيق جمعة شيخة، تونس، بيت الحكمة، 1988، ص61.

كما رأى الغرناطيون في الأزهار بشتى أنواعها وأشكالها دليلاً على المحبّة والمودّة فتهادوا بها تأكيداً للمحبّة فيما بينهم، ولرفعة منزلتها أيضا وجدوا فيها هدية تليق بمقام السلاطين والملوك **فابن زمرك** يقدّم للسلطان الغني بالله أزهاراً وقد كتب معها هذه الأبيات:[1]

أَمَـــوْلاَيَ تَقْبِيلِـــي لِيُمْنَـــاكَ شَـــاقَنِي ❊ وَلاَ يُنْكِرُ الظَمْـآن شَـوْقًا عَلَـى البَحْـرِ
وَلَمَّـا رَأَيْـتُ الـدّهْرَ مَـا طَـالَنِي بِهَـا ❊ وَشَـوّقَنِي مِـنْ حَيْـثُ أَدْرِي وَلاَ أَدْرِي
بَعَثْـتُ لَـكَ الزّهْـرَ الجَنِـيّ لَعَلَهَـا ❊ تُقَبّلُهَـا عَنِـي ثُغُـورُ مِـنَ الزّهْـرِ

فالشاعر يتودّد للسلطان من خلال تقديمه له باقة من الأزهار، التي يعبّر من خلالها عن شوقه وحنينه لتقبيل يده، لكنّ الدهر لم يسعفه في نيل مبتغاه، فلم يجد أي وسيلة تساعده في ذلك غير إرساله لتلك الأزهار.

3- وصف المتنزهات:

يعتبر متنزه (نجد) من أجمل متنزهات غرناطة، لما يحتفيه من جداول المياه والسواقي وأشجار الحور والرند، يصف **سهل بن مالك** هذا المتنزه قائلا:

كُـــل وجْـــدٍ سَـــمعتُم دُونَ وجْـــدي ❊ لأصِـــيلُ يَفُـــوت طَرَفِـــي بِنَجْـــدٍ
حَيْـــثُ جَـــرَرْتُ ذيْـــل كُـــل مَجنُـــونٍ ❊ بَـــين حُـــورٍ تَمـــيس مِنْـــه وَرَنْـــدٍ
وســـــواقٍ كـــــأنّهُنَ سُـــــيُوفٌ ❊ جُرِدَتْ فِـي الرِيَـاضِ مِـن كُـلِ غَمَـدٍ

1 ديوان ابن زمرك، ص 421.

ويلتفت **'ابن سارة'*** إلى متنزه "فحص غرناطة" في معرض مدح الأمير المرابطي أبي بكر بن إبراهيم فيقول فيه:[1]

اليَـــومَ أخْمَـــدَتْ الظلَالَـــةُ نَارَهَـــا ⁂ واسْـــتَرْجَعَتْ دَارُ الهُـــدَى عُمَّارَهَـــا
واســـتقبَلَتْ حَـــدَّقُ الـــوَرَى غَرْنَاطَـــةَ ⁂ وَهِـــيَ الحديقَـــةُ فُوفـــت أزهَارَهَـــا
فكَـــأنَ تَشَـــرِينًا بِـــه نيسَـــانَهُ ⁂ يكسُـــو رُباهَـــا وَرَدَهَـــا وبَهَارَهَـــا
فِـــي غُـــبِّ سَـــاقيَة تُرَقْـــرِقُ أَدْمُعًـــا ⁂ يَحْكِـــي الجُمَـــانَ صِـــغارَهَا وكِبارَهَـــا
مـــا شـــدت مـــن نهـــر كصـــدر عقيلـــةٍ ⁂ شـــقت أنامُلـــها عليـــه صَـــدَارَها
أو جـــدول كالنّصْـــلِ في يـــدِ ثـــائرٍ ⁂ أمهـــى صـــحيفتة وهـــزّ غرارهـــا
مـــا بـــين أشـــجار تميـــدُ كأنهـــا ⁂ شـــرابُ جريَـــالُ يَـــديرُ عُقَارَهَـــا
مترنحـــون إذا لِحاهـــا عـــادِلُ ⁂ تركـــت سُـــكونَ حُلومِهـــا ووِقَارَهَـــا

كما يشير إلى ما تمتّعت به غرناطة من أمن، ويصف أثر الربيع في متنزه فحص، حيث اكتسبت رباه بالورد والنرجس، ويحتفي بالصّورة فيتخيّل السواقي تذرف دموعاً رقراقةً كالفضة، ويشبّه النهر المصقول النّاصع البياض بصدر الحسناء، ويشبه جدول المياه بالنّصل والأشجار تتمايل في نشوة من النّسيم كما لو كانت سكرى من الراح.

4- وصف القصور:

لقد تنافس الملوك والخلفاء في بناء القصور واغرموا بتزيينها وزخرفتها والتفاخر بها ومزجوا بين الطبيعة والعمران، فشيّدوا قصورا لا مثيل لها في الجمال وحسن الصّنعة والإتقان، "**كانت ظاهرة بناء القصور والتفاخر بها من العادات التي تميز بها سلاطين الأندلس...، إن بني الأحمر ساروا على هذا النّهج المعماري في دولتهم، فقد شيّدوا القصور الكثيرة التي تنوّعت في أشكالها وطرائق العمران فيها، إلا أنها جميعاً جمعت من حسن الصّناعة وإتقان البناء، فقد نجح سلاطين بني الأحمر في إحداث تأثير جمالي يصحب**

*هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سارة البكري الشنتري، لغوي وشاعر (ت517هـ).

[1] ينظر سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسائل، 2001، ج11، ص459.

فنّ توزيع الخمائل من خلال مزج الطبيعة بالعمارة التي استحدثوها"[1]، لقد نهج بني الأحمر نهج أسلافهم في بناء القصور، فشيّدوا: **قصر الحمراء، قصر جنة العريف، قصر شنيل.**

يعتبر **قصر الحمراء** في غرناطة رائعة من روائع العمارة العربية الإسلامية، نظراً لما تتجلّى فيه من قيم جمالية وإبداعية غاية في الروعة والتقنية العالية، فهو "**قصر غرناطة الملكي، قاعدة الملك ومقام الأمراء، معلم تاريخي تتفق في عظمته وفخامته واتساع رقعته مع عظمته من بناه، مازال يشهد على مدى التقدم الذي وصل إليه المسلمون بالأندلس في العمارة والبناء"**[2]، هذا ما دفع عديد الشعراء إلى التغنّي بجماله والعبقرية المعمارية فيه، يقول ابن زمرك:[3]

قِــفْ بِالسَــبِيكَةِ وَانْظُــر مَــا بِسَــاحَتِها ⁂ عقيلــة والكثيــبُ الفــرْد جَالِيــــــهَا
تَقَلَدَتْ بِوِشَــاحِ النَهْــرِ وابْتَسَــــــمَتْ ⁂ أَزْهَارُهَــــا وَهْــــيَ حَلْــــيُ في تراقِيهــــا
ولِلسَــبِيكَةِ تَــاجُ فَــوْقَ مَفْرَقِــــــــهَا ⁂ تــودُ درٌّ الــدرَارَي لــو تُحاكِيــــــــهَا
فَــإنَ حَمْرَاءَهَــا والله يكْــــــــلؤها ⁂ يَاقُوتَــةُ فَــوْقَ ذَاكَ التَــاجِ يُعْلِــــيهَا
بُروجُهــا لِــبرُوجِ الأفُــقِ مخْــــــجلة ⁂ فشــــهْبَها في جمــــال لا تُضاهيــــــهَا

يقف الشاعر بالسبيكة* واصفاً ما يحيط بها من أنهار وأزهار، ويرى القصر الحمراء وكأنّه تاج على جبين غرناطة، في إشارة إلى الروعة التي تبتدي للناظر.

[1] التجليات الحضارية في الشعر الأندلسي (عصر بني الأحمر)، سعد ماشي بن عودة العتزي، ص110.

[2] شعر أبي الحجاج يوسف الثالث ملك غرناطة (دراسة موضوعية فنية) بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي، شريف عبد الحليم عويصة كلية اللغات، ص19.

[3] ديوان ابن زمرك، ص171.

*سميت التلة التي بني عليها القصر بتل السبيكة لأن تربته تميل إلى الاحمرار.

يقول **ابن مالك الرعيني*** واصفا تربة غرناطة:[1]

رَعَــى اللهُ بِــالحَمْرَاءِ عَيْشًــا قَطَعْتُــــــهُ ❊ ذهَبْتُ بِه للأُنــسِ، واللَيْــلُ قَــدْ ذَهَــبْ
تَرَى الأَرْضَ منها فِضَــةً فــإذَا اكْتسَــتْ ❊ بِشمْسِ الضُحَى عَادَت سَــبِيكَتُهَا ذَهَــب

فيعطيها اللون الذهبي رافعاً مقامها وقيمتها إلى قيمة الذهب كما أنه اختار وقت الضحى لانتشار أشعة الشمس، والتي تظهر فيه غرناطة أشد لمعاناً وإشراقاً.

وقد زيّنت جدران الحمراء وممراتها بنقوش شعرية من أروع ما يقال في وصف محاسن هذا الصّرح المعماري، وقد أبدع الشعراء في هذه النقوش الشعرية، يتحدث **ابن الجياب*** عن هذه النّقوش ويصف روعتها فيقول:[2]

حِيَطانُهَــا فِيهَــا رُقُــومُ أَعْجَــــــزَت ❊ أَمَــــد البليــــغ فَحُسْــــنُهَا لاَ يُوصَــــفُ
رَاقَت ونــاظِرُ كُــل شَــــكْلِ شَــــكْله ❊ فِــــي نســــبة فموشــــح ومصنــــــــف
مهمــا لحظــتَ رأيــتَ نقشًــا وشــيتْ ❊ أنواعــــه فــــذهَبُ ومُزَخْــــــــــرَفُ

حيث اعتبر أن النّقوش التي تحتويها الحمراء أعجزت البلغاء بحسنها الذي لا يوصف، فأبهرت كل من ينظر إليها سواء كان ما كتب عليها منصف أو موشح، فمهما أمعنت النظر إليها لن تجد أي ثغرة في نقوشها المزخرفة بالذهب.

أما قصر **جنّة العريف** فقد شيّد في أواخر القرن السابع الهجري يقع على ربوة قريباً من قصر الحمراء، وهو بمثابة حديقة كان بني نصر يتنزهون فيها، فمنه كانوا يطلّون على المدينة وقصر الحمراء نفسه، **"هو عبارة عن قصر جميل في وسط ساحة فسيحة في وسطها بركة ماء غرس حولها الرياحين والزهور**

*هو أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني أبو جعفر الغرناطي الأندلسي (700-779).
[1] نفح الطيب، المقري، ج1، ص177.
*هو أبو الحسن علي بن محمد بن الجياب (673-749)الوزير، الكاتب، الشاعر، له ديوان شعر ورسائل.
[2] ديوان ابن حيان، ص107.

الساحرة، وكان المثل المضروب في الظل الممدود والماء المسكوب، والنسيم العليل، وقد اتخذه ملوك غرناطة مصيفا ومتنزها يرتادونه للراحة والاستجمام"[1]

يقول ابن زمرك واصفاً روعة قصر جنّة العريف، مادحاً سكانها:[2]

يَـــا سَـــاكِنِي جَنَـــةِ العريـــــــف ⚜ أَسَـــكَنْتُمُ جَنّـــة الخـــُـــــــلود
كـــم تمّ مـــن منظـــــــر شـــريف ⚜ قـــد حُـــفَّ بـــاليُمن والسَّـــعُود
ورُبَّ طَـــوْدٍ بِـــه منيـــــــف ⚜ أَدْرَاجُـــهُ الخُضْـــرَ كالبُـــــــنُودِ

مشبّهاً من يسكن بها كأنما يسكن جنّة الخلود، لما فيها من خيرات وخضر ومناظر خلابة.

أقام سلاطين بني الأحمر في غرناطة العاصمة وأنحاء أخرى من المملكة عدداً كبيراً من القصور ما زال أثرٌ من بعضها باقياً إلى اليوم.

من خلال ما تقدّم من وصف للأودية والأنهار والمتنزّهات والقصور نلمس تأثير البيئة في الشاعر والذي ينعكس على حالته النفسية فيصبح المكان أكثر من مجرّد منظر طبيعي، فلا يبقى مجرد جماد بل يصبح ذلك المكان له دلالات خاصّة به في قالب شعري، فعندما نقرأ النّص الشعري الذي يعتمد الشاعر في بنائه على المكان لا نقرأ المكان كجغرافيا، أو طبيعة أو تاريخ، وإنما نقرأ المكان كصورة مشكلة تؤدّي وظائفها الفنية قبل أيّ وظيفة أخرى.

لقد عاش الغرناطيون مع الطّبيعة وأحيوها في شعرهم، فأصبح وصف الطبيعة لديهم حركة أدبية شاملة لا غرضاً مستقلاً وحسب فتمسّكوا بها، وتغنّوا بجمال ذلك المكان الذي تربّوا وترعرعوا وتسامروا بين أنهاره ووديانه، وأكثروا من الوصف والمدح فيه ليتركوا لنا كقرّاء وباحثين دلالة وهي عظمة ومجد ذلك الأدب الذي وللأسف ذهب واندثر بخروج العرب من الأندلس خروجاً نهائيًّا، لكن المكان ظلّ شاهداً على الزّمن العربي فيه.

[1] أزهار الرياض، المقري، ج1، ص195.
[2] نفح الطيب، المقري، ج8، ص246.

الخاتمة

وبعد هذه الدراسة الوجيزة حول دلالات المكان في الشعر الأندلسي عامّة والشعر الغرناطي خاصّة، توصلت إلى جملة من النتائج والملاحظات والتي تتلخّص فيما يلي:

- ✓المكان من خلال مفاهيمه اللغوية والفلسفية والفنية هو انفتاح للذّاكرة على أزمنة أخرى، وانفتاح للنّفس على مشاعر متنوعة، وانفعالات متشابكة فتتحقّق دلالته حينما يحرّك خيال القارئ ليعيش عبر زمن النّص المقروء مكانه الخاص.
- ✓يتحوّل المكان من مكان هندسي إلى مكان دلالي عندما تتحكم في صورته المكانية لغة يحكمها الخيال، لأنّ بلاغة المكان لن تتأسّس إلاّ عن طريق اللغة، فاللغة هي التي تعطي للمكان كينونته وتشكّل نسقه العام في أسطره أو أبياته أو جمله الشعرية، فهي التي يؤرخ الشاعر من خلالها لتاريخ المكان ويرسّخه في الذاكرة لينتشل القصيدة المكانية من النسيان من بين آلاف القصائد.
- ✓للمكان في الأندلس دلالات نفسية ودلالات اجتماعية، فالنّفسية شملت الحنين والشوق إلى الأوطان والشكوى من الغربة، وإيثار الوطن على الاغتراب بالإضافة إلى رثاء الأمكنة، أمّا دلالته الاجتماعية فتمثلت في استحضار الشعراء للأمكنة ليرمزوا بها للقيم الاجتماعية السائدة في ذلك العصر.
- ✓يُذكر المكان في الشعر الأندلسي رغبة في التمتع بما فيه من جمال، فينتقل الشاعر من حدوده وماديّته الجامدة إلى مكان ينبض بالحياة والأحاسيس الشاعرية، فتوصف الرّياض والقصور والدور ومجالس الأنس لإبراز ما فيها من جمال يظهر تفاعل الشعراء معها وامتزاج مشاعرهم بأجواء ذلك المكان.
- ✓الشاعر ينقل تجربته الشعورية المريرة في كثير من الأحيان فيُعوّل على الصورة الشّعرية ووسائلها، وهو في هذه الوسائل كُلّها ينظر إلى المكان مستفيدا من تداعيات الأحداث التي تقع على مسرحه، ومن المشاعر الإنسانية التي تتغيّر فيصيبه الفرح والسّرور عندما يجد نفسه في أحضان الطبيعة الخلاّبة، والألم والحسرة عندما يرى مدنه تنهار.
- ✓شهد المكان في العصر الغرناطي على زوال ونهاية الحكم الأندلسي، فتساقط المدن الواحدة تلوى الأخرى كان له الدلالة الأكبر على فقدان الوطن الذي ولدوا ونشأوا في أرضه، لذلك نجد

الشعراء في العصر الغرناطي برعوا في شعر الغربة والحنين، ووسعوا مفهوم الرثاء ليشمل ما يفقد من مدن وحصون وقلاع.

- ✓اتخذ الرّثاء في عصر بني الأحمر طابعاً استصراخياً يقوم على استنهاض همم الملوك، وشحذ عزائم المسلمين للجهاد ضد النّصارى، محاولة من الشعراء إيقاظ النّيام على وقع ألحان حزينة شجيّة.
- ✓خلع الشاعر الغرناطي حالته النفسية على الطبيعة، فتغنى بجمالها الخلاب، فوصف أوديتها وأنهارها وشغف بأزهارها ومتنزهاتها وولع بقصورها، فرسم ملامحها في أروع اللوحات الشعرية.
- ✓ المكان هو الصفحة الوحيدة التي تطل على الماضي، وتؤرخ له بإخلاص سواء كان ذلك على مستوى الاستقطاب الموضوعي، أو على مستوى الاستفراد الذاتي (الوجداني والنفسي)، فالنبش في هذه الصفحة هو بمثابة إعادة ماء الحبر للأحداث المحتفظ بها طول الزمن.
- ✓ لقد ظلّت غرناطة زهاء قرنين عنواناً لمجد الإسلام ودولته وملاذاً ساطعاً للحضارة الأندلسية، التي كانت أنوارها الباهرة تشعّ في أرجاء أوربا خلال حلك العصور الوسطى، فلما أشرفت الدولة الإسلامية على الفناء، غدت حمراء غرناطة قبرها الأخير وطوت بين جدرانها صفحتها المجيدة، وما زالت الحمراء وساحتها الشاسعة وأبهاؤها الفخمة وأبراجها الشامخة منذ أكثر من أربعة قرون عنواناً للمجد الذاهب وشاهداً صامتاً لجليل الحوادث والذكريات.

{تم بحمد الله}

قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

1. الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، تح: محمد بن عبد الله عنان، دار المعارف، مصر، (د.ت) ج1.
2. الأدب الأندلسي (النثر، الشعر، الموشحات)، فوزي عيسى، دار المعرفة، الجامعية، مصر، 2011.
3. الأدب الأندلسي، سامي يوسف أبو زيد، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ط1، 2012.
4. أزهار الرياض، مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج2، 1929.
5. أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت.
6. أصول النقد الدبي المعاصر، احمد الشايب، مكتبة النهضة، القاهرة، ط7، 1964.بلاغة المكان، فتيحة كحلوش، دار الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2008.
7. بنية اللغة الشعرية، جون كوهن، تح: محمد الولي ومحمد الغمري، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1986.
8. تاج العروس، الزبيدي، تح: عبي بشيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، 1994.
9. تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، إحسان عباس، دار الشروق للطباعة والنشر، ج3، ط1، 2001.
10. تهذيب اللغة، الأزهري، تح: علي حسن هلالي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ج2، د.ط، د.ت.
11. جماليات المكان في النقد الأدبي المعاصر، عبد الله أبو هدف، د.ط، د.ت
12. جماليات المكان، غاستون باشلار، غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1984.

قائمة المصادر والمراجع

13. الحنين في الشعر الأندلسي (القرن السابع الهجري)، محمد أحمد قالي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2008.

14. الحنين والغربة في الشعر العربي، يحي الجبوري، دار المجدلاوي، للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2008.

15. ديوان ابن خاتمة أحمد بن أحمد علي الأنصاري، تح، محمد رضوان الداية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق،1972.

16. ديوان ابن خفاجة، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

17. ديوان ابن زمرك، تح: محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997.

18. ديوان ابن فركون، تح: محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية الرباط، ط1، 1987.

19. ديوان ابن مالك، تح: محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)، ج4.

20. ديوان عبد الكريم القيسي، تح: جمعة شيخة، بيت الحكمة، تونس 1988.

21. ديوان لسان الدين بن الخطيب، تح: محمد بن شريفة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1987.

22. ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث، تح: عبد الله كنون، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1985.

23. رحلة ابن بطوطة، ابن بطوطة، ابن بطوطة، تح: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة بيروت، ج2، 1985.

24. الزمان والمكان في الشعر الجاهلة، باديس فوغالي، عالم الكتب الحديثة، الأردن، 2008.

25. الزمكانية وبنية الشعر المعاصر (أحمد عبد المعطي نموذجا)، موسى حمودة جدار للكتاب العالمي، عمان، د.ط، 2006.

26. سر أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة، ط11.

27. شعر الاستصراخ في الأندلس، عزوز زرقان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008.

28. شعرية الفضاء السردي، حسن نعيمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، د.ط، 200.

قائمة المصادر والمراجع

29. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، ج6، 1979.

30. الصورة الغنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة

31. صورة المرأة في الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، محمد صبحي أبو الحسين، عالم الكتب الحديثة، الأردن، ط2، 2005.

32. عبقرية الصورة والمكان، طاهر عبد المسلم، دار الشروق للنشر والتوزيع رام الله، المنارة، 2002.

33. عن بناء القصيدة العربية الحديثة، علي عشري زايد، مكتبة ابن سينا للطباعة والنشر، القاهرة، ط4، 2002.

34. لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، محمد عبد الله عنان.

35. لسان العرب، أبي الفضل جمال الدين محمد مكرم ابن منظور، دار المعارف، مصر، ج6، 200.

36. المدينة في الشعر العربي الجزائري، إبراهيم رماني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، ط1، 2002.

37. معجم العين، الفراهيدي، تح: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت.

38. مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1986.

39. نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، تح: محمد رضوان الداية دار الثقافة والنشر والتوزيع، بيروت، 1967.

40. نظرية البنائية في النقد الأدبي، صلاح فضل، دار الشروق، مصر، ط1، 1998.

41. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، تح: إحسان عباس دار الصادر، بيروت، ج1، ج2، ج3، ج4.

42. نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، محمد عبد الله عنان، مطبعة الجنة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط3، 1966.

43. وظيفة الأدب بين الالتزام الفني والانفصال الجمالي، محمد نويهي، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ط، 1997.

الفهرس

إهداء	
شكر وعرفان.	
المقدمة.	أ-ب
مدخل: توطئة حول المكان.	من 01 إلى 08
الفصل الأول: دلالات المكان وبلاغته.	09-28
المبحث الأول: الدلالات النفسية والاجتماعية للمكان.	من 09 إلى 21
المبحث الثاني: بلاغة المكان.	من 22 إلى 28
الفصل الثاني: دلالات المكان في العصر الغرناطي.	29-54
توطئة حول العصر الغرناطي.	من 29 إلى 30
المبحث الأول: دلالة المدن.	من 31 إلى 44
المبحث الثاني: دلالة الطبيعة.	من 45 إلى 54
الخاتمة.	55-56
قائمة المصادر والمراجع.	من 57 إلى 60

تلخيص:

يتشكل المكان في الشعر الأندلسي وفق الحالة النفسية والاجتماعية التي يتعرض لها الشاعر، فعندما تكتنفه حالة شعورية اتجاه مكان ما فإنه يلجأ إلى ترجمة مشاعره إلى مجموعة من الأبيات الشعرية تمحورت مواضيعها حول الحنين والغربة، كما برع الشعراء الغرناطيون في شعر الاستصراخ والرثاء، فوظّفوا المكان توظيفا فنيا نفسيا كانت له دلالة واحدة هي الخوف الدائم والقلق من فقدان الوطن، فخلعوا حالتهم النفسية على الطبيعة رغبة منهم بالتمتع بجمال أرضها والتغني بروعة قصورها.

الكلمات المفتاحية: الدلالة –المكان– الشعر الأندلسي.

Résumé

Le lieu en poésie andalouse reforme en fonction de l'état psychique et sociologique du poète. Celui-ci traduit Ses sentiments en vers un lieu quelconque en vers qui pivotent autour des thèmes de Nostalgie et d'éloignement .Ils ont excellé dans le poème des lamentations. Comme ils ont far de lieu un usage artistique et psychique dont la seule hamhice était la peur de prendre la patrie. Ceu sert reflété sur la mature dont le dieir était de joui de la beauté de la nature et de la
Splendeur de ses châteaux.

Mots- clef:
Semantique-lieu- la poésie andalouse

Summary

This research aims at pointing at the position of the nation of space (place) in the Andalusian poetry. It goes according to the social and Psychological state of this pote. This later translates a given feeling towards a space around which circle a sek of themes as mostalgy because of living far canaty. Poetr speak about the poetry of exodus. they've show the feelings of fearness to lose their countries this was in an artistic way. They reflectes their psychological life through nature as they aims at adimising its beautiful landscapes and be amazed by its places.

Key-words:se;qntics- spqce- poetry qndqlusiqn